

٧

ابن سينا

واحد من عباقرة المسلمين الكبار، عاش فى القرن الميلادى الحادى عشر وعرف المجد، وذاق ويلات السجن، وودع الدنيا دون الستين . لقبه معاصروه بالشيخ الرئيس، ومنحه الغرب لقب: أبو الطب البشرى . أبدع معارف جديدة فى كل العلوم . وظل كتاباه : القانون والشفاء يضيئان الطريق للبشرية ثمانية قرون فى كل العلوم. إنها قصة تثير الفخار، يقرؤها الصغار والكبار.

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام

التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

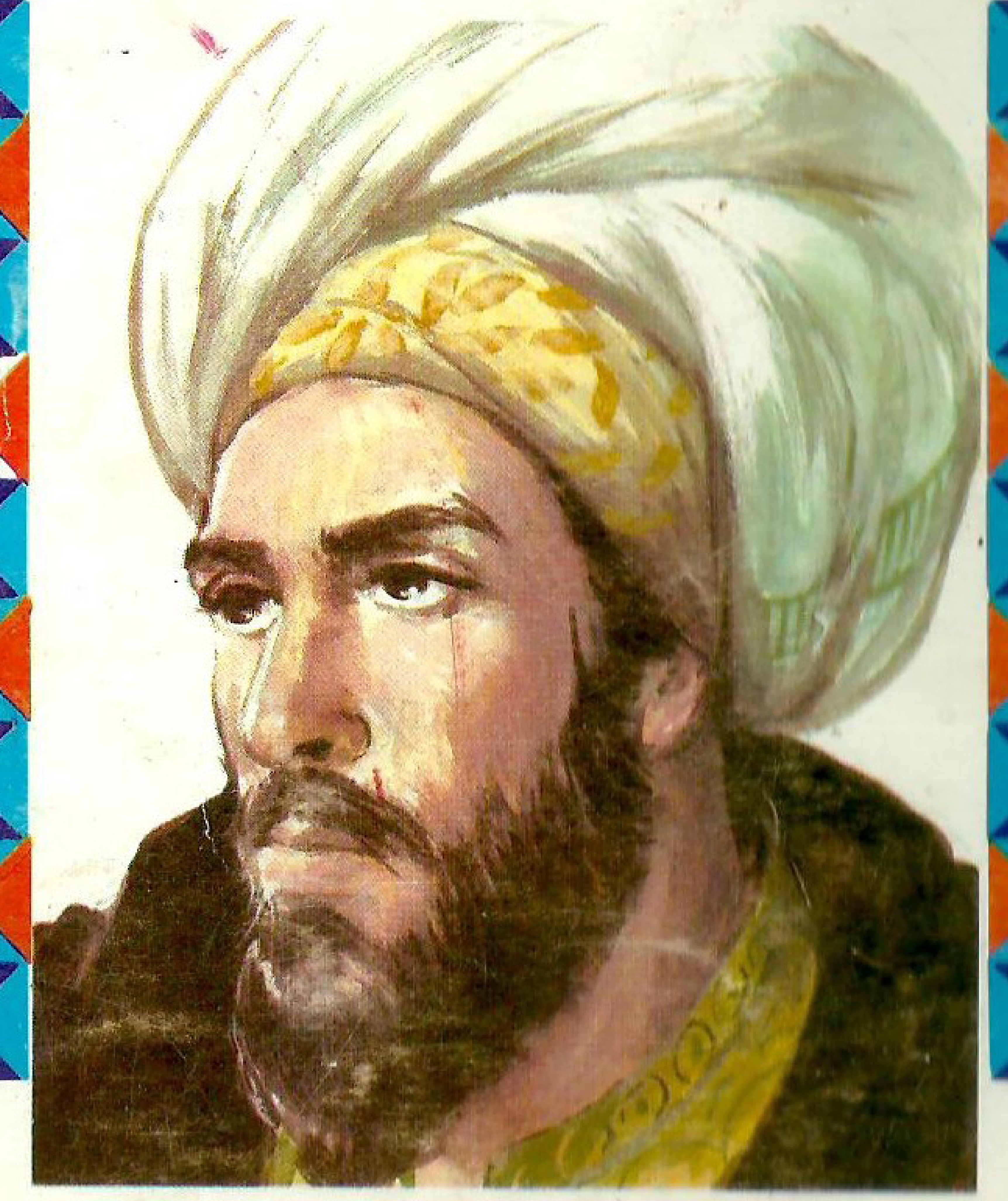
مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

علماء العرب

٧

ابن سينا

أبو الطب البشرى



تأليف : سليمان فياض
رسوم : اسماعيل دياب

الأهرام
مركز الأهرام للترجمة والنشر

علماء
العرب
(٧)

ابن سينا

أبو الطب البشرى



سليمان فياض

الطبعة الأولى
١٤٠٧ هـ ١٩٨٧ م

الطبعة الثانية
١٤١٢ هـ ١٩٩٢ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام ـ شارع الجلاء ـ القاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ ـ تلكس ٩٢٠٠٢ يوان



قصر الداعيـة

فى مدينةِ « بُخارَى » على نِهر زارفشان بجمهورية أوزبكستان حاليا ، استقرَّ الدّاعيةُ « عبدُ الله بنُ عليٍّ ابنِ سينا » ، وصحبَ معه زوجتَه « سِتَارَة » ، وولديْه : « الحُسَيْن » ، و « الحارِث » ، فقد عيَّنه الأميرُ « نوحُ

ابنُ منصـور » أميرُ الـدولةِ السَّـامانيَّـةِ ، والياً على « بُخارى » .

كانتْ « بُخارى » عاصمةً للسّامانيِّين ، ولهُم كانَ يدينُ بالطاعةِ الأمراءُ فى أفغانستان فى الجنوب ، وفى خُوارَزْم فى الشَّمال ، وفى جُرْجَان جنوبىّ بحرِ قزْوين .

وكانتْ « بُخارى » مدينةً عامِرة ، منـذُ خضعَت للإسلام ، بالقصورِ ، والمساجدِ ، ومكتباتِ الورّاقين ، وكانتْ تنتشرُ فيها ، وتحيطُ بها ، الحدائقُ والبساتين .

واستقرّ « عبدُ الله » بأسرتِه ، فى قصرٍ من قُصُورِ الأميرِ « نوح » ، واعتادَ أن يستقبِلَ فى بيتِه ، كلَّ ليلةٍ ، صفوةً من الدُّعاةِ ، ومن الفقهاءِ ، ومن عُلماءِ اللغةِ ، وعلماءِ علومِ الدنيا ، فى الطبيْعيَّاتِ ، والرياضيـاتِ ، والفلكِ ، والمنطقِ والفلسفة . وفى كلّ ليلة ، إثْرَ صلاةِ العِشَاء ، كان يدورُ بينهم حِوَارٌ ونِقَاش ، لا يتوقّف إلا عندَ مُنتصفِ الليل ، فى عديدٍ من قضايا السياسةِ والدينِ واللغةِ وعلومِ الدنيا .

واعتادَ ولداه : « الحُسَيْن » و « الحارِث » أن يجلِسا فى أطرافِ المجلِسِ ، يستمعانِ بِشغَفٍ وفُضول ، إلى

ما يتحدّثُ فيه العُلماء . وكانَ « الحُسيْن » لا ينصر المجلِس لينامَ ، إلا حينَ يذهبُ آخرُ ضَيْف ، وعندئذٍ يحاصِرُ أباه بالأسئلةِ فيما سمِعَه ، وفيما لم يفْهمْه من مُصْطلحاتِ العُلوم . فكانَ أبوه يضحَك ، ويضعُ يَده على رأسِ « الحُسيْن » قائلاً :

ـ لم تُجاوِز السابعةَ من عمرِك بعدُ يا بنى . ولِكلِّ شىءٍ مُقدِّماتُه . أمَامَك أنْ تحفَظَ كِتابَ الله ، وتحفَظَ قدراً وفيراً من شِعْرِ العربِ ونَثْرِهم ، وتدرُسَ المنطِق ، وعندئذٍ سوفَ تقْدِرُ على فهمِ ما لا تقدِرُ على فهمِه الآن .

بائع البصـل

وأَوْلى « عبدُ الله » اهتمامَه لابنِهِ الحُسَيْن ، فحفِظَ القُرآنَ الكريم ، على يدِ مُعلِّمٍ للقرآن ، والكثيرَ من الشعرِ والنَّثرِ على يدِ مُعَلِّمٍ لِلأَدَب . وكانَ المُعلمان يفِدَان إلي الحُسَيْن ، واحداً بعْدَ آخر ، فى قصرِ أبيه ، ويقضِى كلٌّ مِنهما معهُ بضْعَ ساعات . وكانَ قد بلغَ من العمرِ آنذاك عشرَ سَنوات .

وقال الحُسين يومًا لأبيه :

ـ أُرِيدُ أن أتعلّمَ حسابَ الهند ، وقد سمعتُ أن العالِمَ الرياضِىّ المسلِمَ « أبا مُوسى الخُوارَزْمى » ، قد وضع فيهِ كِتاباً . وقد بحثت عنهُ عندَ الورّاقين فى بُخارى ، فلمْ أعثُرْ على نسخةٍ منه .

فقال له أبُوه « عبدُ الله » :

ـ ستجِدُ هذا الكتابَ يا ولدِى عند صديقنا بائِعِ البَصل . وهو بعلمُ الحِسَابِ خبير . فاذْهبْ إليهِ فى السُّوق .

وانطلَقَ « الحُسَيْنُ » مسرِعاً إلى بائِعِ البَصل فى السّوق ، ووجدَ لديهِ كتابَ « الحِساب الهندى » . وفرِحَ بائِعُ البصَل بالحُسَيْن ، وقالَ له :

ـ أنتَ عَزيزٌ ، وابنُ عزيز . وسأعلِّمُك حسَاب الهِند بنَفْسِى ، فى بضْعَةِ شهور .

وأغْلَقَ بائِعُ البَصل متْجَره ، وتفرَّغ للحُسَيْن ، وعلّمه فى قصرِ أبيهِ كتابَ « الحِساب الهندى » ، وكِتابًا آخر للخُوارَزْمى عنِ « الجَبرِ والمقَابَلة » . وأجْزَل « عبدُ الله » العطاءَ لصديقهِ بائِعِ البَصل ، تعويضًا له عنْ إغلاقِهِ لمتجرِهِ بضْعَةَ شُهور .

أخــوان .. نقِيضــان

كان « الحُسَيْن » شدِيدَ الفضولِ للمعرفة ، كِثيرَ السُّؤال عما لا يعرف ، قوىّ الذاكِرة ، فطِنَ الفَهْمِ ، يُحسِنُ عقْلُه تجميعَ شَتَاتِ المعارفِ المتفرِّقةِ ، وينْسِجُ منها فى ذهْنِه الصغِير كُلًّا واحِدًا . وكان عقلُه يُحسِنُ تمييزَ الأفكارِ الحسنةِ عنِ الأفكارِ الرّدِيئةِ ، ويُحسِنُ اختيارَ ما هُوَ حقِيقِىٌّ وواقِعِىٌّ من بَيْنِها ، نافِراً من كلِّ خيالٍ أو خرافاتٍ أو أسَاطِيرَ ، ويُجْهِدُ عقلَه للوصُولِ إلى هذِهِ الغايات ، شأنُه شَأن كلّ الموهوبين من العباقِرة .

كانَ « الحارِثُ » أخُوه مُحِبّا للمرَح وللهْو ، مُغرَمًا بالتجوُّل فى أنحاءِ بُخارَى ، وفيما حوْلَها ، لكنّ « الحُسَيْن » كان لا يجِدُ مسَرّة ولا مُتْعَةً إلا فى القراءةِ والحِفْظ . وتُشْفِق عليهِ أمّه « سِتَارَة » ، فتقولُ له :

ـ ترفّق بصحتِك وعينيْك يا بُنَىّ ، اخرُجْ والْعَبْ ، مِثلَ أخِيك ، معَ الأولاد .

ولا يزيدُ « الحسين » ، كُلما سمِعَ نُصحَها ، عن

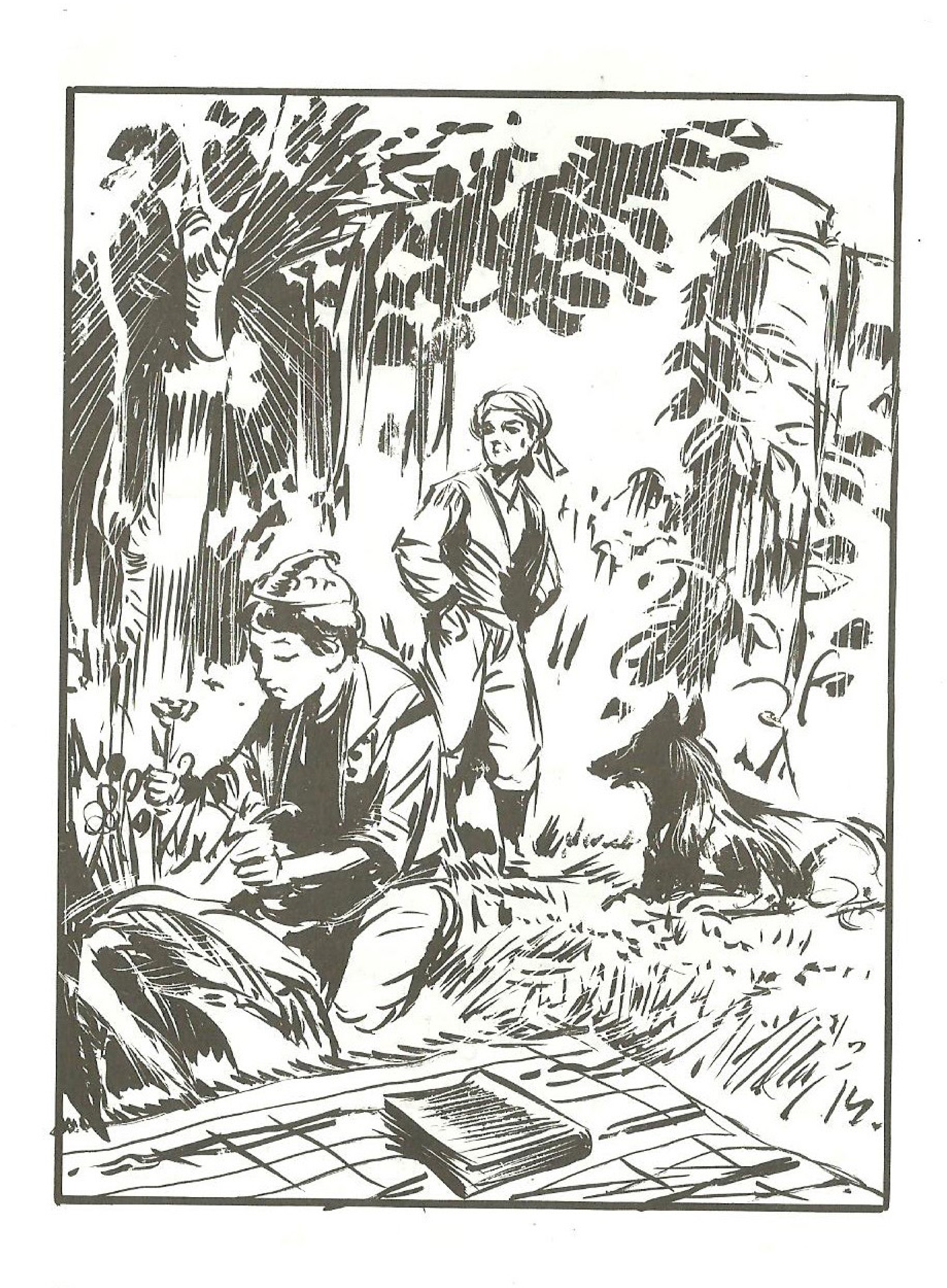
الابتسامِ ، ومُواصَلةِ ما كانَ فيه ، مع الكتبِ والأَوْراق . وتدفَعُ « ستارة » بولَدِها « الحارِث » فيُغرِى « الحُسَيْن » بالخُروجِ معهُ إلى الحدَائق ، فيرُوح « الحُسين » يتأمّلُ ويفحَص النباتَاتِ ، والأَوْراقِ ، والزّهُور ، والحيواناتِ ، فى فُصُول ، أو يَغْرَق فى القراءَةِ فى كتابٍ ، تحت شَجرةٍ ظَلِيلةٍ من أشجارِ البسَاتِين .

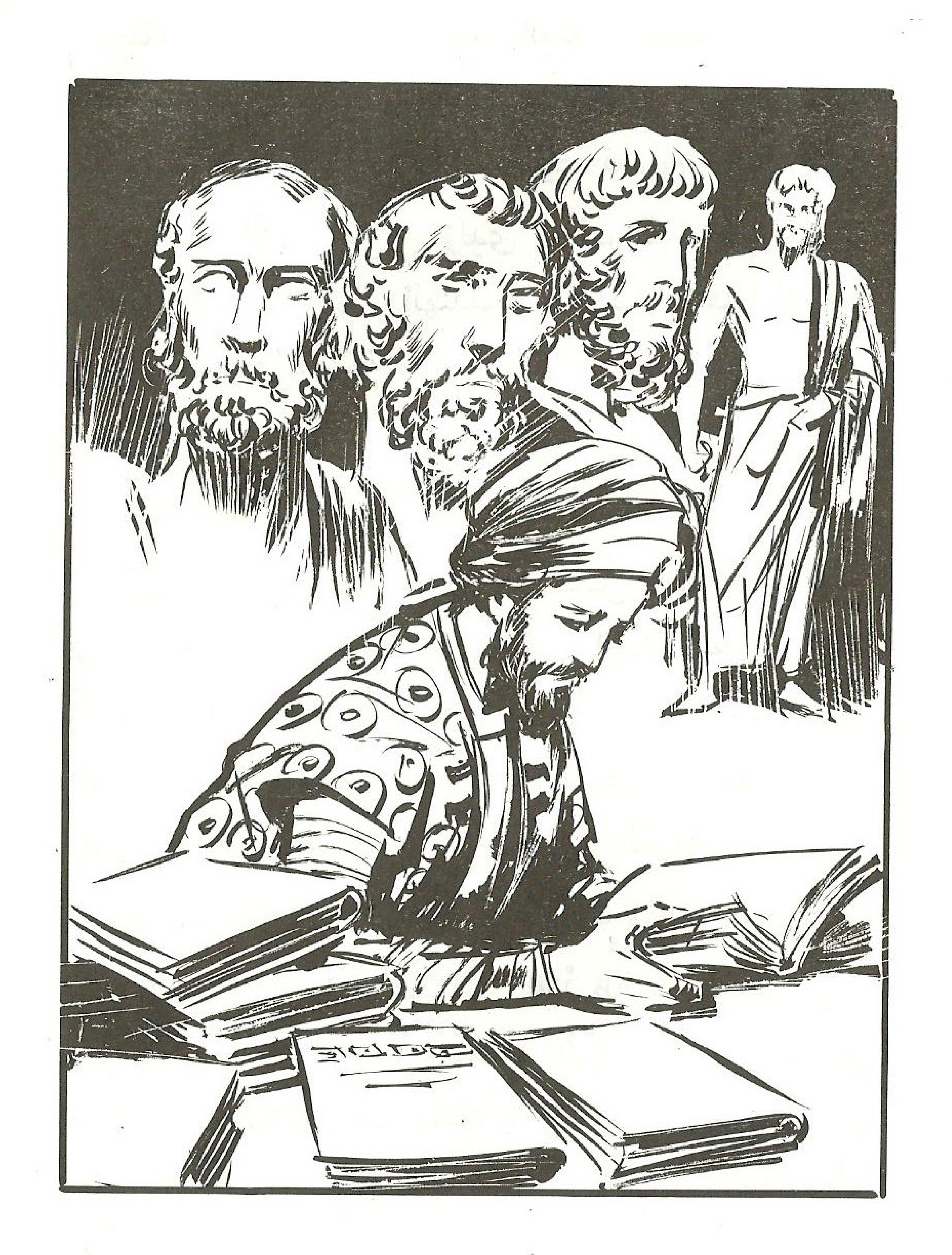
وتشكُو « ستارة » لعبدِ الله قائِلةً :

ـ لا تدَعْ ولدَك هكذا . إنه ما يزَال طِفلاً ، ويجبُ أن يعِيشَ طُفُولته مثلَ أخِيه « الحارث » .

ويهزّ « عبدُ الله » رأسَه ، معبراً عن سرورِه بولدِه « الحسين » ، ويقُول له :

ـ ولدُنا هذا سيكُون عالِماً يا سِتَارة ، فهو حادّ الذكاء ، ولا ينسَى شيئًا . لا تخافِى عليه ، فقدْ خلَقه الله مُكْتَمِلَ القُوَى البدَنيَّةِ والعَقْليَّةِ ، ويَكفِيه القليلُ من النّوْم . ليتك ترَيْنَه يا أُمّ الحُسيْن ، وهو يُناقِش ضُيُوفى فى كُلّ ليلة ، سائِلاً مرةً ، ومُجِيباً أُخرَى . ومذكّراً لهم بما نسُوه .





علمنى يا سيدى

قَدِم إلى « بُخارى » عالِمٌ مُتفلْسِف هُوَ : « أَبُو عبيْدِ الله النّائِلىّ » ، ونزَلَ ضيفاً مُقيمًا فى قَصْرِ صديقهِ « عبدِ الله » . وكانَ الحُسَيْنُ آنَذاك مَشْغُولاً بدراسَةِ الفقهِ على أستاذِه « اسماعيلَ الزاهد » ، وكانَ شدِيدَ الرّغْبةِ فى دراسَةِ الفلسَفةِ والمنطِق والرياضِيّاتِ والطبيعيّات . وكانَ « أَبُو عُبَيْدِ الله » لهَا عارِفاً ، وبهَا خبيراً فقالَ لهُ « الحُسَيْن » :

- عَلِّمْنِى كلَّ ما تعلمه . ولا تُشْفِق عَلَىّ ، فأنا قَادِرٌ على الجمْعِ بيْنَ دِراسَتِها جميعاً .

فضَحِك « النائِلِىّ » ، وقَال :

- رَاقبْتُ أحْوالك مَعَ العِلْمِ يا بُنَىّ . ولَسَوْف أُعلِّمُك كُلَّ ما أعْلَمُه ، فذَكاؤُكَ أهلٌ له . وسنبدأُ بعِلْمِ المنطِق الذى وضَع أُسَسَه « أرِسْطو » فيلسُوفُ اليونانِ الأكبر .

وقَسَمَ « الحُسَيْن » كُلَّ وقْتِه ، فى نهارِه وليلهِ ، بيْنَ أُسْتاذيْه : « اسماعيلِ الزاهد » و « النائِلىّ » ، ومجالِسِ

العلماء ، فأخَذَ يدْرُس مع الفِقْه ، منطِقَ أرِسْطو : أشْكَالَهُ ، وأقْيِسَته ، ومقدِّماتِه ونَتائِجه ، المُوجَبَ منها والسَّالِب ، حتى إذا أحاطَ بِهِ عِلْماً ، قال لهُ « النّائِلىّ » :

ـ أنتَ الآنَ أهْلٌ يا ولَدِى ، لدراسَةِ عِلْمِ الهَيْئةِ (الفلك) ، والأُصُولِ الهندسِيّة ، ثم نَرْتَقِى منها لدراسةِ الطبيعياتِ ، والفلْسفةِ ، فى خَاتِمَةِ المطَاف .

صبى ينظر للنجوم

مرّت ثلاثُ سَنَوات . وبلغَ « الحُسَيْنُ » من العُمرِ أربَعَ عشرةَ سنةً ، أتمَّ فيها تَعلَّمَ عِلْمِ الهَيْئةِ لبَطْليموس ، والأُصُولَ الهندسِيّة لإِقْليدِس ، وكِلاهُما من علماءِ اليونانِ العباقرة . وَتَعرَّف علَى المقُولَاتِ الفلْسفيّةِ لِفلاسِفَةِ اليُونانِ جمِيعاً ، الذِينَ تُرْجِمَتْ آثارُهم إلى العربية .

وقالَ « النائِلىُّ » لصديقِهِ « عبدِ الله » :

ـ آن لى أن أَرْحَلَ يا عبدَ الله . فقدْ طالَتْ ضِيافَتُك لِى . ولم يعُدْ وَلدُك الحُسيْنُ بحاجةٍ إلىّ ، فقد عرَف كُلّ ما أعِرفُه ، ولَيْتَك رأيتَ وَلَدك يا صدِيقى ، وهو يفسِّرُ لى أموراً فى عِلمِ المنطِقِ والهنْدَسةِ ، والفلَكِ والفَلْسفة ، لم أكُنْ أجِدُ تفسيراً لها .

وإذْ خلاَ عبدُ الله بولدِه الحُسَيْن ، فتَحَ قلبَهُ له ، وقالَ :

ـ والآنَ . ماذا تُرِيدُ مِنّى يا بُنَىّ . إنْ أرَدْتَ عملاً من أعْمَالِ « بُخارَى » لَدَى الأميرِ نوح ، حدثْته فيما تُرِيدُه .

فقالَ له « الحُسيْنُ » رَاجِياً :

ـ لا . لا أُريدُ عملاً الآن . ولا أُرِيدُ عمَلاً فى الغدِ ، سِوَى عَمَلٍ يقدمُه لِى عِلْمى . ولنْ أرْضَى إلا بأنْ أكُون ، بعلِمى ، واحداً من خَوَاصِّ رِجَالَاتِ الدُّوَل ، والأُمَرَاء .

وابْتسَمَ عبدُ الله لِطُمُوحِ وَلَدِه ، وبدَا له كأنّهُ يُرِيدُ أن تَطُولَ يَدَاهُ النُّجوم . وأضَاف « الحسينُ » قائِلاً لأَبِيه :

ـ ما يزالُ طَرِيقُ العِلم مفتوحاً أَمَامِى يا أَبِى . وهُنَاكَ معارِفُ فى الطّبِيعِيّاتِ والإِلَهِيّات لم أَعْرِفْهَا بَعْد . وهُنَاك عِلمُ الطبِّ يدعُونِى لمعرفَتِه . وقد اخترْتُ عالِمَيْن طبِيبَيْن ، سَأتردَّدُ عَلَيْهِما فى مَسْجِدِ بُخارَى الجَامِع ، وفى قَصْرَيْهِما ، وهُمَا طبِيبَا الأَمِيرِ « نوح » : « الحُسَيْنُ بنُ نوحٍ القُمْرِىّ » ، و « أبو سَهْل المُسَيِّب » .

فتنَهّدَ « عبدُ الله » ، وقال :

ـ صِرتَ رَجلاً قَبْلَ الأَوان ، فأنتَ تعرف ما ترِيدُه ، وتحدّدُ الطريقَ إليه ، وتبذُلُ الجَهْدَ فى الوُصُولِ إلى غَايتِك . لكَ ما شِئْتَ يا أَبا عَلِى .

وسَعِد « الحُسَيْنُ » لأنّ أباهُ لقّبَهُ بِلَقَبِ « أَبِى عَلِىّ » ، اللّقَبُ الذِى كانَ الناسُ يخاطِبُون بِهِ « الحُسَيْنُ بْنُ عَلَىٍّ ابن أَبِى طالب » ، فى المدِينةِ المنوّرة .

الطب أمره هيّن

انقضَتْ ثلاثُ سَنَوات أُخْرَى ، و « الحُسَيْنُ » قد أفرَغ نفْسَه لتعلُّمِ الطِّب ، على يدَىْ أُسْتاذَيْه : « القُمْرِىّ » و « المُسَيِّب » . وَوَضَعَ « الحُسَيْنُ » معرفته بالطِّبّ فى مُعالجَةِ المرضَى الفقراءِ فى « بُخَارَى » ، يزُورُهم حَيْثُ هُمْ ، فى بُيُوتِهم ، وفِى أعمالِهم ، ولا يأخُذُ أجْراً من أحدِهم . ويُجْرِى ، فى بَيْته ، التّجارِبَ علَى ما عَرَفَهُ مِن الكِيمْياء فى العقاقيرِ النباتيَّة والحَيَوانِيّةِ والمعدنِيّة . فانفتحت له بعلاجاته ، وتجاربه الكيميائية آفاقٌ جديدة فى الطب والكيمياء ، لا عَهْدَ لأحدٍ بها من الأطبّاءِ والكِيمْيائِيِّين فى زَمانِه . وكانَ يقولُ لأُسْتاذَيْه :

ـ الطبّ ، مثلُ الكيمياء ، لا تكْفِى فيه الدّراسةُ النظريّةُ وحدَها . ويجبُ أنْ يقترِنَ الطبُّ بالدّراسةِ العَمَلية ، مثلَما يجبُ اقترانُ الكيمياءِ بالتّجارِبِ المعْمَلِيّة . والطبّ أمره

هيِّن لِمنْ يُعطِيهِ حُبَّ القَلْب ، وذَكاءَ العقل . فهو ليسَ من العُلُوم الصّعْبَة .

ونظرَ الأستاذَان ، أَحَدُهما إلَى الآخر ، فى دهْشة . وقالَ لهُ « القُمْرِىّ » :

ـ لم يكذِبْ أستاذُك النائِلِىّ يا أَبَا عَلِىّ ، حينَ حَذّرَ أَباكَ من اشْتِغالِكَ فى حَيَاتِك ، بأىِّ أمرٍ آخَرَ سِوَى العِلْم .

بداية المجد

فى تِلْكَ الأَيّامِ انتشرَت الأَمْرَاضُ بَيْنَ الناسِ فى « بُخارى » حتّى دخلتْ قُصُورَ الأغنِياءِ والأمراءِ ، واشْتَدَّ فتكُها بالفُقَرَاء . وكانَ الأطِباءُ فى « بُخارى » قَلِيلِى العَدَد ، وكانُوا يُبَالِغُونَ ، لشدةِ الحاجةِ إلَيْهم ، فى أُجُورِهم . وأَخَذَ « أبُو على » يبذُل جَهْدَه ، فى عِلاجِ الفُقَراءِ ، يزُورُهم فى بيُوتِهم ، ويَسْعَوْن إليْهِ فى قصرِ أبِيه . فطارَتْ شهرتُه فى « بُخارَى » كطَبِيبٍ مُعالِجٍ ، رَحيمٍ بالفُقَرَاء .

وبينَ المرْضَى فى « بُخَارَى » ، كانَ الأميرُ « نوحُ ابنُ منصورٍ » . كان يشكُو من قُرْحَةٍ فى المعدة ، ومن التِهَاب القَوْلُنج (القَوْلون) ، ويَئِسَ طبِيبَاه ، من قُدرتِهما على شفائِه . ولم يَجِدَا مَفَرًّا من نُصْحِ الأَميرِ باسْتِشارةِ

الطبيبِ ، الصغيرِ ، المراهقِ ، أبى على ، فعِلاجاتُه مُسْتحدَثَةٌ لا عهْدَ لأحدٍ بها . فأرسَل الأميرُ « نوح » فى طلبِ ابنِ واليه على « بُخارَى » ، لِيُعالِجه .

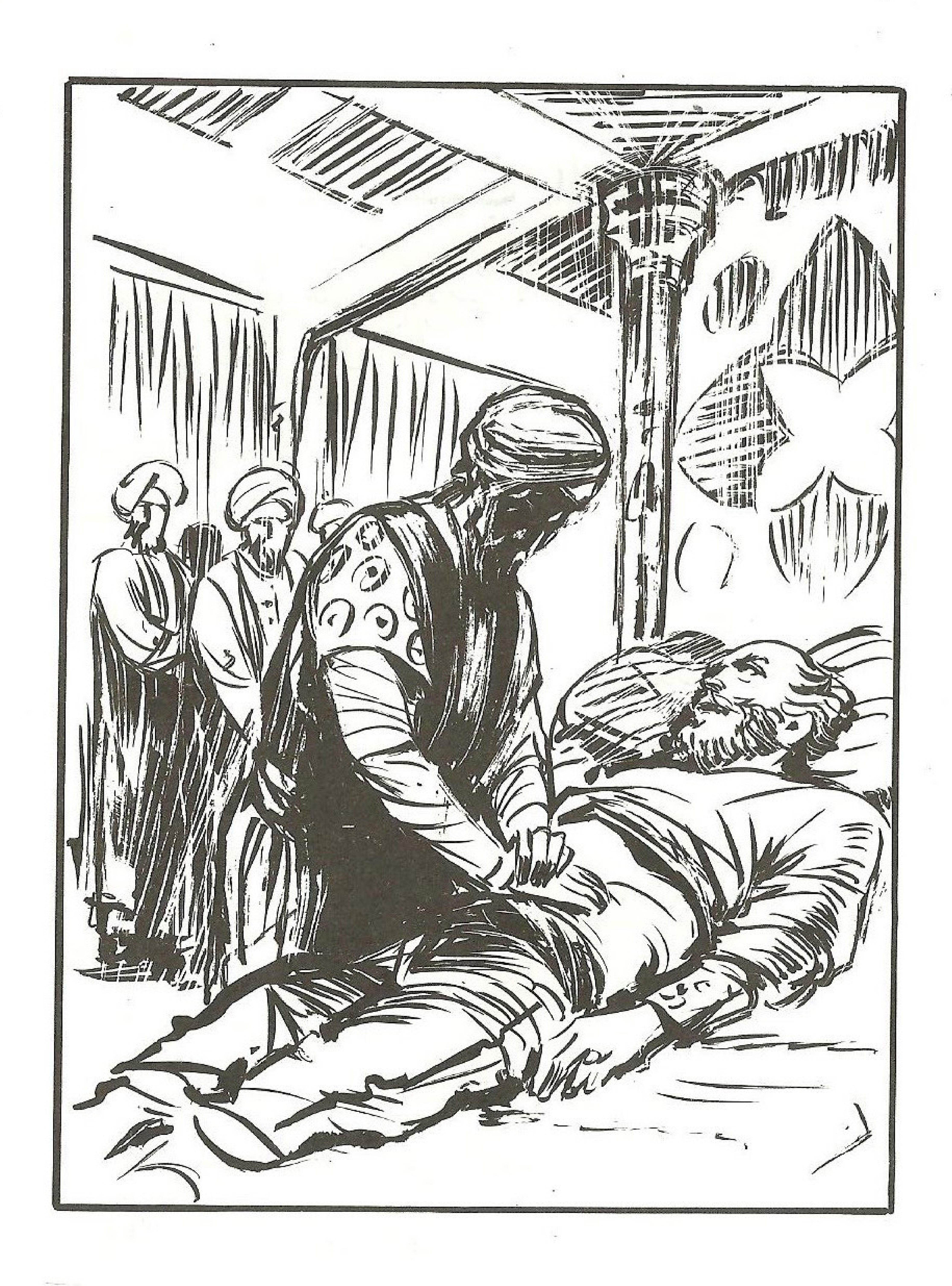
ودَهِش « أبو على » ، وقالَ لأُسْتاذَيْه :

- كَيْفَ أُعالِجُ أَميراً أنتما طَبيباه ، وكِلاكُما أُسْتاذٌ لِى . إنْ أذِنْتما لى أشَرْتُ لهُ بعِلاجٍ ، تُداوِيانِه به . ويكونُ شِفاؤُه بفَضْلِكُما .

فضَحِك « المُسيِّبُ » وقالَ لأَبِى علِىّ :

- يا أبَا علِىّ . صِرتَ الآنَ مِنَ العِلْمِ بالطبِّ فى مكانةٍ رفيعة . ونحنُ نعرِفُ تَواضُعَك ، ونعرِفُ أنّك تُنْكِرُ احتكِارَ العُلَماء للعِلْم . لكنّنِى وصَاحِبِى لَنْ نحرمَكَ مِنَ الفضلِ فى عِلَاجِ الأَمِير . وقد يكُونُ تشخِيصُك لمرضِه غيرَ تشخِيصِنا . فهيّا لترَى الأَميرَ بنفسِك ، ويَراك .

وغادَرَ « أبو علىٍّ » معَهُما قصْرَ أبيه ، وكانَ أبوه ما يزالُ جالِسًا ، يتْبَعُ بناظِرَيْه ابْنَه ، وهو يسيرُ بجَلَالٍ واتِّزانٍ بين أُسْتاذَيْه . كانَ طويلاً ، فارِعَ الطُّول ، ممتلِئَ الجَسَد ، حتى لا ترَى العَيْنُ فِيهِ نقْصًا فى شَىْءٍ .



أمنيـة الطبيب الصغير

فحَصَ « أَبُو على » الأمير « نُوح » . وأدرك عِلّته ، وعرَف دَوَاءَه . وقالَ لِلأميرِ :

ـ إنْ أَذِن لِى مَوْلَاى أَلزَمْتُه نِظَامًا فى الغِذَاءِ ، مع الدّوَاء .

واسْتَسْلَمَ الأميرُ لطبيبِه الفَتى ، مَحْرُومًا من الأطْعِمَةِ التى يُحِبّها ، ويُسْرِفُ فى تَناوُلِها . وأَخذَتِ الآلامُ فى مِعْدَتِه وأَمْعَائِه ، تخِفّ حِدّتُها يوْمًا بعدْ يَوْم ، حتى شُفِىَ وعُوفِىَ . عندئذٍ قالَ الأميرُ :

ـ من اليَوْمِ ، أَنْتَ يا أَبَا علِىّ بَيْنَ أطِبّائِى ، واحِدُ منهم .

فقالَ « أَبُو علِىّ » :

ـ أيّها الأمير . شَرَفٌ كَبِيرٌ لِى ، أَنْ تضُمّنِى إِلَى أطِبّاءِ قَصْرِك ، مع أَسَاتِذَتِى فى الطِّبّ .

وقالَ الأميرُ لأبِى علِىّ :

ـ نجَحْتَ فى شِفَائى ، فتَمَنَّ علَىّ ، واطلُبْ ما تَشَاءُ من المَال .

فقال « أبو على » :

ـ يا مَوْلَاى ، أَنَا وأبِى نَعِيشُ فى نِعْمَتِك . ومُكافَأَتِى هِىَ أَنْ تَسْمَحَ لِى بقِرَاءَةِ ما فِى مَكتَبَتِكَ من كُتُب ، فَقَدْ سَمِعْتُ بضَخَامَتِها ، ووفْرَةِ ما فِيها من كُتُب ، فِى كُلِّ فنٍّ وعِلْم .

وصحِبَ الأميرُ « نوح » بنفْسِه طَبِيبَه « أَبَا علِىّ » لِيُرِيَهُ مَكتَبَةَ قصْره .

أحـلام أبى عـلى

كانَتِ المكتبةُ تشْغَلُ قَاعَاتٍ كثيرةٍ ، بها صنَادِيقُ لِلكُتُب ، ودَفاتِرُ مُسَجَّلٌ بِها أسماءُ هذِه الكُتُب ، وفُرُوعِ العِلْمِ الّذى دُوِّنَتْ فِيه . كانَ بِها ثَلاثُونَ أَلْفِ كِتَاب ، ليس بَيْنَها كِتَابٌ مكررُ النّسخَة ، ولَيْسَ بينَها كِتابٌ إلا وَهُوَ مَرْجِعٌ وحِيدٌ وفَرِيد .

ووضَعَ « أبو عَلِى » لنفسِه نِظَامًا يُغطِّى لَيْلَه ونَهارَه ، لِيَقْرَأَ ما يخْتارُه من آلافِ الكُتُبِ فى مكتبَةِ القصْر . فى

النهارِ كانَ أبُو علي لا يُفارِق القِراءَة فى المكتَبَةِ ، وفِى اللّيل ، يسهَرُ فى قَصْرِ أبيه على أضْواءِ القناديلِ والمِشْكَاوَات ، يقرأُ ما اسْتَعَارَه من الكُتُب ، ويُسَجِّلُ معارِفَ ومُلاحَظات فى دفاتِرِه عما قرأه . وحِينَ يعسُرُ عَلَيْهِ فَهْمُ مَسْأَلَةٍ من مَسَائِلَ العِلْم ، يخْلُو بنفسِه للصّلاة ، ويبتهِلُ لِمُبْدِعِ الخَلْق ، حتّى يُيَسِّرَ له فَهْمَ ما تَعَذَّرَ عليهِ فهمُه ، ويظَلُّ ساهِراً يُفكِّرُ حتّى يغْلِبَه النَّوْم ، والسِّراجُ بجانِبِه مُضَاء .

ويحلُم « أبو علِى » فى نومِه ، مُفكِّراً فى حِلْمِه بالمسْأَلَةِ العَسِيرة ، فعقْلُه البَاطِنُ يُواصِل التفْكِيرَ فيما كانَ وعْيُه يُفكِّرُ فِيهِ فى يقظَتِه . ويصْحُو « أبو على » من نَوْمِه فرِحًا ، فقَدْ وجَد قبْلَ لحْظَةِ الحَلِّ والجَوَابَ للمَسْأَلَةِ العَسِيرَة . ويعبِّرُ « أبوعلِيّ » عن شُكْرِه وحمدِه لِمُبْدِعِ الخَلْق ، فيتصدَّقَ بالمَالِ ، على الفُقَراءِ الذينَ يَلْقَاهُم ، فى طريقِهِ إلى قَصْرِ الأمِيرِ ، ومكتبةِ قَصْرِ الأمِير .

كتاب فى يد دلّال

كانَ « أبو علِيّ » يقْرَأُ ذاتَ يومٍ فى كِتابِ « ما بَعْدَ الطَّبِيعَةِ » لأرِسْطو . وعَلَى حِدّةِ ذَكَائِه ، ودِقّةِ فَهْمِه ، عَجزَ عن أَنْ يفْهَم ما فِيه ، بلْ وعَجزَ عن فَهْمِ غَرَضِ أرِسْطُو مِنه . وأعادَ « أبُو علِيّ » قِراءَةَ الكِتَابِ مِراراً ، بلَغَ عَدَدُها أرْبَعِينَ مَرّة ، حَتّى حفِظَه ، من كثْرَةِ قِراءَتِه لَهُ ، عن ظَهْرِ قَلْب . ويَئِسَ « أَبُو عَلِىّ » من فَهْمِ هَذَا الكِتَاب ، بلْ ويئِسَ من نفْسِه ، واهْتزّتْ ثِقَتُه بذَكَائِه وإرادَتِه .

وذاتَ يوم ، فى وقْتِ العَصْر ، كانَ « أبُو علِى » بحىّ الورّاقِينَ فى « بُخارَى » . ومَرَّ بِدَلّالِ كُتُب ، يُنَادِى عَلَى مُجَلّدٍ فى يدِه ، يَعْرِضُهُ لِلبَيْع . واعتَرَضَ الدلّال طريقَ « أَبِى عَلِيّ » قائِلاً :

ـ هذا كتابٌ أيّها الشّابُ فى الفَلْسفَة ، وثَمنُهُ رخِيص .

فَرَدَّ عَلَيْه « أَبُو عَلِيّ » قائِلاً بتَبَرُّمٍ وضِيقٍ :

ـ لا فَائِدَةَ فى هَذَا العِلْم ، فابْتَعِدْ عَنّى بكِتَابِك هَذَا .

فعادَ الدَّلَّال يُلِحّ قَائِلاً :

- اشتَرِ مِنّى هَذا المُجلّد ، ولَنْ تندَمَ . ثمَنه ثلاثةُ دَراهِمٍ ، وصَاحِبُه مُحْتاجٌ إلَى ثَمنِه ، ولَوْلاَ ذلِكَ ما عَرضَهُ للبَيْعِ .

وأشْفق « أبو عَلِىّ » على صَاحِبِ الكِتَاب ، ونَقدَ الدَّلاّلُ الدَّراهِمَ الثّلاثَةَ ، وأخَذَ الكِتابَ مِنه ، ولَمْ ينظُرْ فِيه ، وعادَ إلى قصرِ أبيه ، وجلسَ فى حَدِيقَةِ البَيْت ، تحتَ خَميلَةٍ مُزْهِرَة فى يومٍ صَيْف .

ونظَرَ « أبو علِىّ » فى الكِتَاب ، وفتحَ فَمه شاهِقًا بدَهْشَة وفَرح . وهَبّ واقِفًا ثُمّ جَلس . فالكِتابُ لِفَيْلَسُوفِ زَمانه « أبِى نصْرٍ الفارَابِى » ، والكِتَابُ فى أغْراضِ كِتابِ « ما بَعْدَ الطّبِيعَةِ » لأرِسْطُو .

ولم ينَمْ « أبو عَلِىّ » إلَى الصبّاح . عكَفَ لَيْلَته على الكِتابِ يقرَأهُ بشغَف . ووجدَ « أبو على » نفسه يفهَم كِتابَ « أرِسْطو » الذى يحفَظُ نصّهُ حَرْفًا بِحَرْف . وكانَ سعيداً بِشَرْحِ الفارَابى له ، وحُسْن كَشْفِه لأغْراضِه ومَرامِيه .

وإذْ أشْرقَتِ الشّمْس ، غادَرَ « أبو علِىّ » صَحْنَ مَسْجِدِ بُخارَى ، إثْرَ صَلاَة الفَجْر ، وتصدّق بمالٍ كثيرٍ من مَالِه الخاصّ على فُقَراءِ بُخارَى ، شاكِراً الله على نعمتِه علَيْه ،

إذْ يسَّرَ له فَهْمَ ما لَمْ يَفهمْ . وهَمَس لنفسِه : صدَق الله العَظِيم ، ففَوْق كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيم .

وصيّة أب

كان « أبو علِىّ » ما يَزالُ طبيباً للأَمِيرِ « نُوح » ، وكانَ يُواصِلُ تَثْقِيفَ نفْسِه بنفْسه ، بِهذِهِ القِراءَاتِ والدّراسَات الْحُرّة ، والمنّظّمَة . ومَعَ ذلِك كانَ يجدُ جَانِباً من نَهارِه يقْضِيه مع أبيهِ فى مَقرِّ وِلاَيَة « بُخارَى » ، يُشَارِكه فى إدَارَةِ الحُكْمِ فِى المدِينةِ ، ويتعَلّمُ على يدَىْ أبيه الحِكْمَةَ والعَدْلَ فى إدارَةِ المدنُ ، والدُّوَل . وقال له أبُوه يَوْمًا :

- يا أَبَا على . أنْتَ الآنَ أهْلٌ لأنْ تكُونَ والِيًا ، أوْ وَزِيراً ، أوْ حَاجِبًا يَخْضَع لسُلْطَانِه كُلُّ الوُزَراء . والدَّوْلَةُ السَّامَانِيّةُ يا بُنَىّ تَذْوِى شَمْسُها ، وأرَى أنّ بَقاءَهَا بعْدَ اليوم مَرْهُونٌ بحياةِ الأمِيرِ نُوح ، وسَوْف تكُونُ نِهايَتُها بَعْدَه عَلَى أيْدِى هَؤُلاَءِ الأُمَرَاء فى غَزْنَةَ (كابول الآن بأفغانستان) .

وقد كَبِرْتُ فِى العُمْرِ يا ولدِى ، وكبِرَ الأَمِيرُ « نوح » ، وكثُرَتْ أمْرَاضُه . والعِلْمُ يا أبَا علِىّ ، مَعَ رَجُلٍ مثلْك لا يَأْخُذُ عنْه أجْراً ، لن يكْفُلَ لكَ الحَيَاةَ النّاعِمَةَ التى

عِشْتَها فى قَصْرِ أَبِيك ، بل لعَلّه يُثِيرُ ضَدَّكَ الحُسّادَ والخُصُوم . ولَسْتَ مِن أَهْلِ الحِرَفِ يا أَبَا علي ، ولا التِّجَارَة ، لِتَحْفَظَ عِلْمكَ ، ويَدَكَ ، وحَيَاتَك . فأَعِدّ نَفْسَكَ للرّحِيلِ عن بُخَارَى ، لوْ سَاءَتِ الأُمورُ ، بَعْدَ الأمِيرِ « نُوح » ، إذَا لقيتُ وَجْهَ رَبّى .

المصائب لا تأتى فُرَادَى

واشْتَدّ المرَضُ مرّةً أُخْرَى بالأَمِيرِ « نُوح » ، وكانَتِ التَّوتُّرَاتُ العَصَبِيَّةُ الّتى يُسَبِّبُها له أمَرَاءُ الأقْطارِ التّابِعَةِ له ، تَزِيدُ من مَرَضِه بالقَوْلنج وقُرْحَةِ المِعدَة . ولم تُفْلِحْ هذِهِ المرّةُ فى عِلَاجِهِ وشِفَائِهِ ، أَدْوِيَةُ « أَبِى علىّ » ، فأَسْلَمَ رُوحَهُ إلى بَارِئِها .

وحَدَث أَنّ مكتبةَ القَصْرِ السّامَانِى شَبَّتْ فِيها النّار ، واحْتَرَقَتْ عن آخِرِها . ومَع أنّ « أَبَا علىٍّ » كانَ لَيْلَةَ الحَرِيقِ ، فى بَيْتِه ، ومَعَ أصْدِقَائِه ، لم يُغَادِره ، فقَدْ تَحَدّثَ النّاسُ ، وتَحَدَّثَ العُلَماءُ من الحَاسِدِينَ لأَبِى علِىّ ، عنْ أَنَّهُ هو الّذى أَحْرَقَها ، حَتّى لا يَعْرِفَ أحدٌ سِوَاهُ ما كانَ فى كُتُبِها من العُلُوم والمعَارِف . وعبَثًا راح



أَسَاتِذَةُ « أبى علِىّ » الأحياء ، يُدافِعُون عَنْه ، مُؤَكّدِينَ أنّه يُؤْمِنُ بأَنَّ العِلْمَ ليْسَ حِكْراً لأَحَد ، ويُؤْمِنُ بِضَرُورَةِ نَشْرِ العِلْمِ بَيْنَ كَافَّةِ النّاسِ .

ولزِمَ أَبُو على بَيْتَه حَزِيناً ، ينْتظِرُ خُمُودَ الشّائِعَةِ ، وخُمُود الفِتَنِ فى أَرْجَاءِ دَوْلَةِ بَنِى سَامَان .

وذاتَ صَبَاحٍ ، وكانَ « أبُو علِيّ » قد بَلَغَ من العُمْرِ اثْنتيْنِ وعشرينَ سنة ، صَحَا من نوْمِه ، عَلَى أَصْواتٍ فى قصْرِ أَبِيه ، تُعْلِنُ وَفاتَه ، بالبُكَاءِ . وصَدَمَتِ اللّحظَةُ « أَبَا على » ، وبُهِت ، ولِشِدّةِ حُزْنه على أبيه ، لمْ تقدِرْ عيناه على ذَرْف الدُّمُوع . خَنقَه الحُزْن ، واحْتَبَسَ فى قلْبِه وصَدْرِه ومَشَاعِرِه .

وحينَ مرّت المِحْنَة علَى أهْلِ القصر ، لم يجدْ « أبُو على » بُدًّا من الرحيل عَنْ « بُخارَى » ، هارِباً من مدِينةٍ فَقدَ فيها أمِيرَه ، ووَدَّعَ بها أَبَاه ، واتُّهِمَ فيها ظُلْمًا بحرْق مكتَبَةٍ نادِرَةٍ ، مَدِينَةٍ تغرُبُ شمْسُها ، ويذْوِى مَجْدُها .

وفكّرَ « أبو عَلِىّ » ، واستقرّ رأيُه عَلَى الذّهابِ بَعِيداً عَنْ بُخَارَى ، وعَنِ الأُمَرَاء الغَزْنَويِّينَ المتمرِّدين ، الذين يُحارِبون الدّوْلة السّامَانِيّة ، وأُمَراءَها الضِّعاف ، إلَى مَدِينَةِ « الجُرْجَانية » ، عاصِمةِ الدَوْلة الخُوارَزْمِية فى الشّمالِ .
وقَرَّر أخُوه « الحارِث » البَقَاءَ فى « بُخَارَى » إلى حِين .
واختارَتْ أُمُّه « سِتارَة » ، العَوْدَةَ إلى أَهْلِهَا فى قَرْيَة « أفْشَنَة » . التى كانَ زوجُها الراحِل « عبدُ الله » والِيًا عَلَيْها ، فيما مضى من السِّنين .

لا . . للسياسة

لم يجدْ « أَبُو علِيّ » مَشَقّةً فى الوُصول إلى الأمِير « علىّ ابنِ مأْمُون » ، أمِيرِ خُوارَزم ، فى قصرِه بالجُرْجَانِية . ورحَّبَ الأمير بأبِى علِيّ ، وأحْسَنَ استقْبَاله ، قائِلًا له :

ـ شُهْرَتُك سَبَقَتْكَ إلَيْنا يا أَبَا على . ولَقَدْ كُنّا نُفكِّرُ فى دَعْوتِكَ لِتُقِيمَ بيْنَنَا ، فما كانَ لِمثلِك أن يَبْقى فى « بُخارَى » ، بعْدَ وَفاةِ أميرِهَا القَوِىّ .

كانَ الأميرُ « علِىّ » يُحِبُّ العِلمَ والعُلماءَ ، وكان قد أنشأَ مجمَعًا عِلميًّا فى الجُرجَانيّة ، يضمُّ صفْوةً مِن العلماءِ فى زمانِه ، بينهم : الفيلسُوف « أبو سَهْل المسِيحى » ، والطبِيبُ « أبُو الخيرِ الحسَن » ، والرياضِيّانِ « أبُو نصرِ ابن العِرَاق » ، و « عبدُ الصمَدِ الحكِيم » ، والجُغرافى الفلكى « أبُو الريحَانِ البيرُونىّ » . وقرّر الأميرُ « على » راتبًا شهرياً لأبِي علِيّ ، وضَمّهُ إلى مجلِسِ العُلماءِ فى مجمعِهِ العِلمِىّ . وبدَا أنّ الأيّامَ ستطِيبُ لأبى على ، بين أَسَاتِذَةٍ من العُلماءِ العِظَام ، هُوَ بينهُم الأصْغرُ عُمراً ، يتعلّم مِنهم ما لديْهِم من العِلْم ، ويُعَلّمهم ما يعلمُه مِنه .

وقرر « أَبُو على » ألاّ يشْتغِل بالسِّياسة ، مِثلما كانتْ حالُه مع أَبِيه فى بُخَارَى ، وأن يُواصِلَ فى « الجُرجَانِيّة » أبحاثَه وقِرَاءَاتِه ، ومُعالجاتِه للمرْضى بيْنَ الحِينِ والحِين ، وأنْ يجِدَ جُسُوراً من المقُولاتِ الفِكْرِيّة ، يُوَفِّقُ بها بَيْن الفَلْسَفَةِ والدِّين ، وبَيْنَ العِلْمَ والدِّين ، فلا ينبَغِى لآراءَ فى الفَلْسَفة والعِلْم ، يَرَاهَا العَقْل حَقًّا ، أن تَتَنَاقَضَ مع دِينٍ يدعُو لِطلبِ العِلمِ أينما كان ، وفى أىِّ زمَان . وَكانَ « أبُوعلى » قد بَلَغَ من العُمر اثْنتَيْنِ وعشْرِين سَنَة .

بداية مؤلّف

وأخذ « أبُوعَلِىٍّ » ، يتنقّلُ بيْنَ المدُنِ فى خُوارَزْم ، باحِثًا عنِ الكُتُب ، ساعِياً إلى لِقَاء العُلَماء ، ثم يعُودُ إلى الجُرْجَانِيّةِ ، آمِنًا إلى رِعَايَةِ الأَمِيرِ « عَلِىّ » . وأَخَذَ يُؤَلِّف كُتُبًا عِلْميةً ، فيما يعْرِفُه من العُلُوم .

كانتِ السّنواتُ تمرُّ تِباعًا علَى « أبِى علِى » فى الجُرْجَانِيّة ، فى هُدُوءٍ وسكون . كانَ يَرْقُبُ من بَعِيدٍ انْتِصَارَاتِ الأُمَرَاءِ الغزْنَوِيّينَ على الأُمراءِ السَّامَانِيِّين ، وَيُتَابِعُ فُتُوحَاتِ الأمِيرِ « محمود الغزنوىّ » بجيُوشِه فى شَمَالِىّ الهِنْد ، وإعْلانَه لِنَفْسِه سُلْطَانًا . وكانَ يشهَدُ اتقاءَ

الأَمِيرِ « علىِّ بن مَأْمُونٍ » لِمطامِحِ السُّلطانِ الجديدِ وأطْماعِه ، بِزَوَاجِه من أُخْتِ السلطان ، وإعلانِه التبعِيّةَ لسُلْطتِه . وكانَ فى نفْسِ الوَقْت ، يَضَعُ كُتُباً يُفْرِغُ فيها مَعَارِفَه ، وآراءَه .

أَلّفَ « أَبُوعَلِىّ » فى الجُرجَانية كُتَب : « الحكِمَةُ العُرُوضِيّة » ، و « الحَاصِلُ والمحصُول » ، و « البِرِّ والإِثْم » ، و « المختَصرُ الأَوْسَط » ، و « المبدَأُ والمِيعَاد » ، وكانَتْ كُتُبًا فى الفِقْه ، وفى الفلسفَةِ . وألّف كتابًا عنِ « الأَرْصَاد الكُلِّية » فى الفلَك ، جمَعَ فيه معارِفه الفلكية . كان يعرِفُ الكثِيرَ ، وكانتْ ذاكرتُه تختَزِن الكثيرَ ، ولا تَنْسى . فعقلُه بالِغُ الصفاء ، وتفكيرُه شدِيدُ التّنظِيم .

لا أمان لرجُل سيْف

وشارَفَتْ سَنَوات « أبى على » فى الجرجانية حُدَود العشْر ، وبدَأَ « أبُوعلى » يُؤَلِّفُ كتابَه الشهِيرَ فى الطِّبِّ « القَانون » . ولم يكدْ « أَبُوعلى » ينتهِى من جُزْئِه الأَوّل ، حتى جاءَتْ إلى الأمِيرِ « علِىّ » رِسَالةً من السُّلطان

« محمودُ الغزْنَوى » يطلُبُ مِنْه فيه أن يَبعثَ إليهِ بالعُلماء الذينَ يضمّهم مَجمَع الجُرْجَانيّة العلمى ، فكلٌّ منهم ، فيما سمِعَ به ، نسيجٌ فريدٌ فى العِلم .

وجمَعَ الأميرُ المأمونىّ عُلَماءَ مجمعِ الجُرجانية ، وصارَحهم بأطْماعِ السُّلطان محمودٍ فى بِلادِه ، وعَجْزه عن مُخالفَةِ أمْرِ السُّلطَان . وقالَ لهمُ الأمِيرُ المأمُونى :

ـ القرارُ لكم فى أنفُسِكم ، فمنْ شاءَ مِنكُمْ ذهَبَ إليه ، ومن شَاءَ بقِىَ معِى ، وحَمَيْتُه ما استَطعتْ ، ومن شَاءَ الرّحِيلَ عن خُوارَزْم ، فهو وما يشاء لنفْسِه .

وأدرَكَ « أبُو علِى » أن السُّلطَانَ الغَزْنَوىّ لا يُحِبُّ حقيقةً العُلماءَ ، ولكنّه يخْشَى بأْسَهم عنْدَ غيره ، وأنّه لن يكُونَ رحِيمًا بالعُلماءِ الذينَ يذهَبُون إلَيْه ، إلا أنْ يكونُوا من عُلماءِ الدّين ، فهو رجَلٌ لا يُؤْمِنُ بغَيْرِ السّيْف ، والفُتُوحاتِ ، ونشْرِ الدّعْوَة ، ولا مكانَ فى قلبِه لعُلماءِ الدّنيا ، وعلُومِ النّاس . ومثلُه لا حَيَاةَ له عِنْدَه ، ولا حَاضِرَ ، ولا غد .

وكانَ « أبُو علِى » قد تَعَرّف إلى الأميرِ شَمْسِ الدين « قابوسَ بنِ وشْكَمِير » أمِيرِ الدّوْلَةِ الزّيَارِيّة ، جَنُوبِىّ بحرِ قَزْوين ، فى إحْدَى زيارَاتِه للدوْلَةِ الخُوارزْمية ، فقرّر

الرحيلَ عَنِ الجُرجَانية ، بِصُحْبَةِ صدِيقهِ العالِمِ الفيْلَسُوف : « أبِى سَهْل المَسِيحِى » .

وفى ظلامِ الليل ، غادَرَ الصّدِيقان مدينَةَ الجُرْجَانية ، وكانَا فى ثِيَابِ الدّراوِيش ، حتّى لا يتعرَّفَ عليْهِما أحدٌ من جَوَاسِيسِ السُّلطانِ محمُودٍ وعُيُونِه .

يكتب من الذاكرة

وتعرّض « أبُو على » وصاحبَه لأخطارٍ كثيرةٍ فى الطرِيق ، وهبّتْ عاصِفَةٌ رملِيةٌ شدِيدَةٌ فى الصّحراءِ ، فهلَكَ فِيها « أبو سَهْل المسيحى » ، ونَجا « أبُو علِىّ » من العاصِفة ، فبكَى صاحِبَه ، وَوَاصل هُرُوبَه إلى « أبِيُورد » ، ثم « طُوس » ، ثم « نيسَابُور » حتى وَصَل إلى « جُرْجَان » عاصمةِ الدّوْلَةِ الزِّيَارِيّة .

كانت مدينَةُ « جُرْجان » ، على ساحِلِ بحرِ قزوين ، موفُورَةَ الثراءِ ، ترويها نُهَيْراتٌ عديدَة . ونزَل « أبُو على » ضيْفًا علَى الفيلسُوفِ « أبِى حَمَدِ الشّيرازِىّ » . وكانتْ لديْهِ مكتبةٌ عامِرَة ، وقضَى العالِمانِ ليْلَتهما يتحدثَانِ فى أحْوالِ زمانِهما العاصِفة .

وفِى الصباحِ ، صحِب « أبُو حمد » العالِمَ الشّاب

« أَبَا على » ، وقدمَه إلى الأميرِ « قابوس » ، فضمّه إلى مجلِسِ علمائه ، وأحْسَن استقْباله ، وخصص له راتِبًا شهْرِيًّا ، أكثَرَ مما كانَ له عندَ الأمِيرِ المأمُونِىّ .

واشترَى « أبُو على » لنفسِه داراً واسِعَةً ، مُجاورَةً لدارِ صديقِهِ « أبى حَمَد » . وجاءَ لِزيارتِه عالمٌ فقِيه هو « أبُو عبَيْدَة الجُرْجَانِى » ، واستَرَاحَ كُلٌّ مِنهما لصاحِبِه ، فصاراً صديقَيْن حِميمَيْن . واعتادَ « أَبُو على » ، أن يُملِىَ على صَدِيقه « أبِى عُبَيْدة » ما يُرِيدُ تدْوِينه من مُؤَلّفات ، حتى يُفرِغَ عقلَه للتفكيرِ فيما يُملِيه ، ويحرّرَ عقلَه من أعْباءِ الكِتابة . وكانَ « أبو عبيدة » شدِيدَ العجب منْ أمْرِ « أبِى على » ، فهُو يمْلِى ما يُملِيه مما يختزِنُه عقلُه من عَلم . ولا يكلّفُ نفسَه مَشاقّ الرجُوعِ إلى كُتُب . حَسْبُه فقَطْ ، قَبْلَ أن يُملِىَ ما يُمْليه ، أن يرْجِعَ إلى مُلاحَظاتِه فى دَفاتِرِه ، وأنْ يُحدّد كِتابةً بيدِه ، نقاطَ مَوْضُوعِه ، ويُنظّمَها ، فى تَسلْسُلٍ مُتَواصِل ، تُؤدِّى كُلُّ نُقطةٍ إلى ما بعدَها .

وكانَ « أبُو على » يُمْلِى ما يُمْلِيه ، فى كِتابَيْن ، أحَدُهُما فِى كتابِ : « القانون » الطبى الّذِى كان قَدْ أنجز جُزْأَهُ الأوّلَ فى الجُرْجَانية ، والآخَرُ فى كِتابِ « الشِّفاءِ » الذى

بَدَأ يُمليه فى « جُرْجَان » ، فى علومِ الطبيعيّات ، والرّيَاضِيّات ، والإِلهِيّات . وكانَ من عادَةِ « أبى على » ألا يتوقّفَ عن إملائِه ، إلا حينَ يقولُ لهُ صاحِبُه « أبُو عُبَيْدَة » :

- بَلَغْنا خمْسِينَ صَفْحَة .

عندَئِذٍ يبتسِمُ « أَبُو على » راضِياً ، فتُرْفَعُ الأقْلام ، وتُطْوَى الأوْرَاق ، وتبدَأُ سهْرَةُ السَّمَرِ مع الأصْحَابِ من العُلَماءِ فى « جُرْجَان » ، بعْدَ مُنتصَفِ اللّيْل .

الهرب الثانى

وصَار « أبُو علِىّ » أقْرَبَ العُلماءِ إلى نفْسِ الأمِيرِ « قَابُوس » ، فأخَذَ يستشِيرُه فى شِئُون الحُكمِ ، وأمُورِ الدّوْلة ، ويعمَلُ الأمِيرُ بنصَائح « أبِى على » ومشُورَتُه . وضاقَ قوّادُ جَيْشِ الأمِيرِ بهذِه الصّلة بيْن الأمِيرِ والعَالِم ، ودبّرُوا انقِلابًا عسكَرِياً ضِدّ الأمِيرِ قابُوس ، وسجَنُوهُ فى قَلْعَةٍ حَصِينة ، وسارَعُوا للقَبْضِ علَى « أبِى علِىّ » وأخذُوا يَبْحثُون عَنْه فى « جُرْجَان » ، لكنّ « أَبا على » كانَ قد فَرّ مِنها ، وأخذَ يتنقّل بَيْنَ المدائِن : « نَسا » ، و « أَبْيُورْد » ، و « طُوس » ، حتّى وصَلَ إلى « دَهسْتَان » ، ولم يكَدْ

يستقِرُّ بِهَا حتّى مَرِض ، فأخَذَ يُعالِجُ نفسَه بنفسِه ، إلى أنْ كُتِبَ لهُ الشّفاء .

وجاءَتْه رسُل الأميرِ « قابُوس » تدعُوه لِلعَوْدة إلى « جُرْجان » ، فقد نَجح الأميرُ فى القِيامِ بانْقِلَاب ضدَّ قُوّادِه ، والخُروجِ من سِجْنِه ، والعَوْدَةِ إلى قصْرِ الإمارة . وتأثّرَ « أبُو على » بدعوْة صديقِه الأميرِ له ، فعادَ مع الرسُل إلى « جُرْجَان » راجِياً أن يسْتقِرّ بِهِ المُقامُ هذهِ المرة .

لكنّ إقامَةَ « أبى علِى » فى « جرجان » لم تَطُل ، فقدْ تمرَّدَ قُوادُ الجيْش مرّةً أُخْرَى علَى الأمير « قابُوس » ، وفِى هذِه المرّة ، قَتلُوه ، وسَارَع « أبُو علِى » إلى الهَرَب بكتُبِه وأوْرَاقه من « جُرْجان » ، يصْحَبُهُ تِلميذُه « أبُو عُبَيْدَة » ، ولا يعرِفُ أَحدُهما أيْنَ سَتَنْتَهِى بِهِ رِحْلَةُ الفِرَار ، وكانَ كِلَاهُما فى ثِيَابِ المتصَوِّفَة .

الأمير العاشق

نزَلَ الصّدِيقَانِ ، فى خانٍ ، بمدينَةِ « هَمَذان » . وسَمَرَا فى اللّيل مع صاحِبِ الخَان ، فحدثَهما عن قريبٍ للأميرِ « شمسِ الدولة البويهى » ، نَزَلَ بِهِ مَرَضٌ عَجِيب ، لم يَعْرِفْ لهُ عِلَاجاً جَمِيعُ أَطباءِ « هَمَذان » . فهذَا المريضُ

مُلازِمٌ للصّمْت ، عازِفٌ عن الطعامِ والكَلَام ، حتّى عنِ الشكَوى مِمّا يُؤلِمُه .

ونظَرَ « أَبُو عُبَيْدَةَ » إلى « أبِى على » ، ثم قالَ لِصَاحِبِ الْخَان :

ـ بِوُسْعِ صَاحِبِى هذا عِلَاجُ قريبِ الأميرِ « شَمْسِ الدولة » ، لوْ دَبَّرتَ لنا سَبِيلَ الوُصول إليْه .

وفى الصّباح ، يسَّر صَاحِبُ الخَانِ للغريبَيْنِ سَبِيلَ الوُصُول إلى مَرِيضِ قَصْرِ الأَمِير . وَجَدَه « أبُو علِى » جَالِسًا علَى سريرِه . ورَآهُ شابًّا وسِيمًا ، ساهِمًا ، شَارِدَ النّظَرَات . لا يَلْتَفِتُ إلَى أَحد ، ولا يُركّزُ عَيْنَيْه على شَىْءٍ ، شاحِبَ الوَجْه ، غائِرَ الخدّين مِنَ الجُوع .

وجَلَس « أَبُو عَلِى » ، وأخذَ يفْحَصَ مَرِيضه ، يَفْتَحُ فَمه تَارَة ، وعَيْنَيْهِ تَارَة ، ويُنصِتُ إلى نَبَضاتِ قَلْبه الخَافِتَة ، ويَتَحَسّسُ مَوَاضِعَ فى جَسَدِه ، قد يُحِسّ فيها المرِيضُ بألمٍ . ورفَع « أبُو على » رأْسَه ، وقالَ لمنْ حوْلَه :

ـ لَيْسَ بمرِيضِنا ألَم يُعانِيهِ الجَسَد ، وأحسَبُه مَرِيضًا بنفْسِهِ .

وطلبَ « أَبُو على » أن يُؤْتَى لهُ برجُلٍ ، يعرِفُ كُلّ بِلادِ الإمَارَةِ البُوَيْهِيّة ، مُدُنَها وقُراها ، فجِىءَ له برَجُل تاجِر ،



دائمِ الأَسفَار ، فأجْلسه « أَبُو عَلِىّ » بجانبِه ، وأمْسك هُوَ ، بأصابعِ يُسراه ، المِعْصَم اليُسْرَى للمريض ، واضِعًا إبْهامَه على عِرْق النَبْض . وأَخَذَ التاجِرُ يذْكُرُ أسماءَ البِلَاد ، حتى إذا ذَكَرَ اسْمَ بَلْدَة بعَيْنها ، أحسّ « أَبُو على » بنبْض مرِيضِه الشّاب يشتَدّ خفْقُه .

عندئذٍ صرَف « أبو على التاجرَ ، وطلَبَ رجُلاً آخرَ ، يكُونُ من أهْلِ هذهِ البَلدةِ التى خَفَق لذكرِها قَلْبُ المرِيض . فجِىءَ لأبى عَلِىٍّ برجُلٍ دَلّال ، أخذَ يذْكُرُ أسْماءَ الأَحْياءِ فى هذهِ البَلَدَة ، وأسماءَ الشَوارِع بِها ،

وعندَما نطَقَ الدَّلّال باسْمِ شَارِعٍ بعْينِه ، خَفق قلْبُ الشّابّ خَفْقًا عنِيفًا . فطلَبَ أَبُوعَلِىٍّ من الدّلّالِ أنْ يذْكُرَ أسْماءَ العَائلاتِ التى تَقْطِنُ فى هذا الشّارِع ، وأسماءَ بناتِها ، وحينَ ذكَرَ الدّلّال اسمَ أُسْرَةٍ بعينِها ، تَسارَعَتْ ضَرَبَاتُ قَلْبِ الشّاب ، وحِين نَطَقَ باسْمِ فَتاةٍ بعَيْنِها اضْطَرَبَتْ نَبَضَاتُ قَلْبِ الشّاب ، وارتَجَفتْ جُفُونُه ، ودَفَع الشّابُّ بأَبِى عَلِى ، وقَدِ انفَجَرَ فى بُكَاءٍ مرير ، وهو يُخْفِى وجْهه بكفّيْه .

وابتَسَمَ « أَبُوعلى » ، وقالَ بصوْتٍ مرتَفِعٍ :

ـ مريضُنا يُحِبّ هَذِه الفتاةَ التى سَمِعْتُم اسْمَها ، وفى رُؤْيتِه لوجْهِ هذه الفَتاةِ راحَتُه ، وفى زَوَاجِه منها شِفَاؤُه من مَرَضِه .

ليلة فرح

وقَدِمَ الأميرُ « شَمْسِ الدّوْلَةِ » فرِحًا بمعَرفَةِ مرضِ قريبه الأميرِ الصغير ، وقُرْب شِفَائِه ، وقدّم « أبوعَلِىّ » نفْسَه للأميرِ ، فصاحَ به :

ـ أَهُوَ أَنْت . طالمَا سَمِعْتُ بك . لِمَ أَخْفَيْتَ نفْسَك

عَنّى يا أبَا على . لو سمعتُ بقدُومك ، لاستقبَلْتُك بنفسِى على أبْوَابِ « هَمَذان » .

وأبْدَى الأميرُ دهشَتَه لأبِى عَلِى ، من حُبٍّ يوقِعُ صَاحِبَه فى الحُمّى ، والهُزَال ، والعُزُوفِ عن الدّنْيا . فقالَ لَهُ « أبُو على » ، وهُمَا جَالِسَان فى إيوَانِ الإمَارَة :

- أيُّها الأمِير . النّفْسُ لها تأثِيرٌ على الجَسَد ، مِثلمَا للجسَدِ تأثيرٌ على النّفس . كِلَاهما إن مَرِض ، يُورِثُ الآخرَ المرض ، وإنْ صَحّ يُورِثُ الآخرَ الصِّحَّةَ . ولا أرَى سبِيلاً لشِفَاءِ هَذَا الشاب ، سِوَى أن تجمَعَه بحبِيبَتِه ، فى رِبَاطٍ يُقرُّه الدِّين .

وشهِد « أبُو على » و« أبُو عبيدة » ليلة فَرَح ، زُفّتْ فِيهَا الفتَاةُ إلى الشّاب . قرِيبُ الأمير . وكانَ « أبُو علِى » قد بَلَغَ من العُمرِ خَمْسًا وثَلاثِين سَنَة .

يوم رئيس الوزراء

أفْرَد الأمِيرُ شمْس الدولة قصراً لأبِى عَلِىّ ، وألَحّ عليْه ليكونَ رئِيسًا لوُزرَائه ومُستشاراً لهُ فى شُئُونِ الحُكم ، فقالَ له « أبُو على » :

- لا سبِيلَ لقبولِى هذا الشَرف أيّها الأمِير ، إلّا إنْ أذِنْتِ لِى فى إدَارةِ أُمُورِ الدَّوْلَةِ بالعَدْل والنّزَاهَة .

فضحِك « شمسُ الدَّوْلة » وقَالَ :

- ومنْ أجْلِ العَدْل والنّزَاهَةِ أُرِيدُكَ يا أبا علِى .

ونظّمَ « أبُو على » سَاعَاتِ يومِه كُلّها . فى النهارِ يُدِيرُ أُمُورَ الحُكم ، وفِى اللّيْلِ يُملِى عَلى « أبِى عُبَيْدَة » ، بحضُورِ أصْدِقَاءَ مِنَ العُلماءِ خَمسِينَ صفحة ، من كِتَابِه « القانون » ، أو مِنْ كِتابِه « الشّفاء » ، قَائِلًا للعلماءِ من حَوْلِه :

- لا ينبَغِى لِعَالِمٍ أن يُبْقِى شَيْئًا مِنَ العِلْمِ فى نفْسِه ، ولا يُدَوِّنَه فى كِتَاب ، قبلْ أنْ يَلْقَى وَجْهَ رَبِّه .

وحينَ ينتصِفُ الليل ، يدعُو إليْه بالمغنِّينَ والمغنِّيَاتِ ، ويقْضِى مع صَحْبِه ساعتَيْن من السّمَرِ والطّرَب والضّحِك ، وبيْن أيدِيهِمْ الأطْعِمَةُ والفَوَاكه ، يُسْرِفُون فى أكْلِها ، إلى أنْ يغلِبَهم النّوْم ، فينصَرِفُون ، ويذْهبُ « أبُو على » لينامَ ثلاثَ سَاعاتٍ لا تزِيد .

وكانَ « أبُو عُبيْدة » يشفِقُ على أُسْتاذِه ، من إسرافِه فى الطّعام ، وإغراقِه فى اللهْوِ والطّرَب ، وإفراطِه فى بذْلِ الجَهْد ، فى إدَارَةِ الوَزارة ، وفى التّأْلِيف ، فيقولُ له

« أبُوعَلِىّ » ضَاحِكًا :

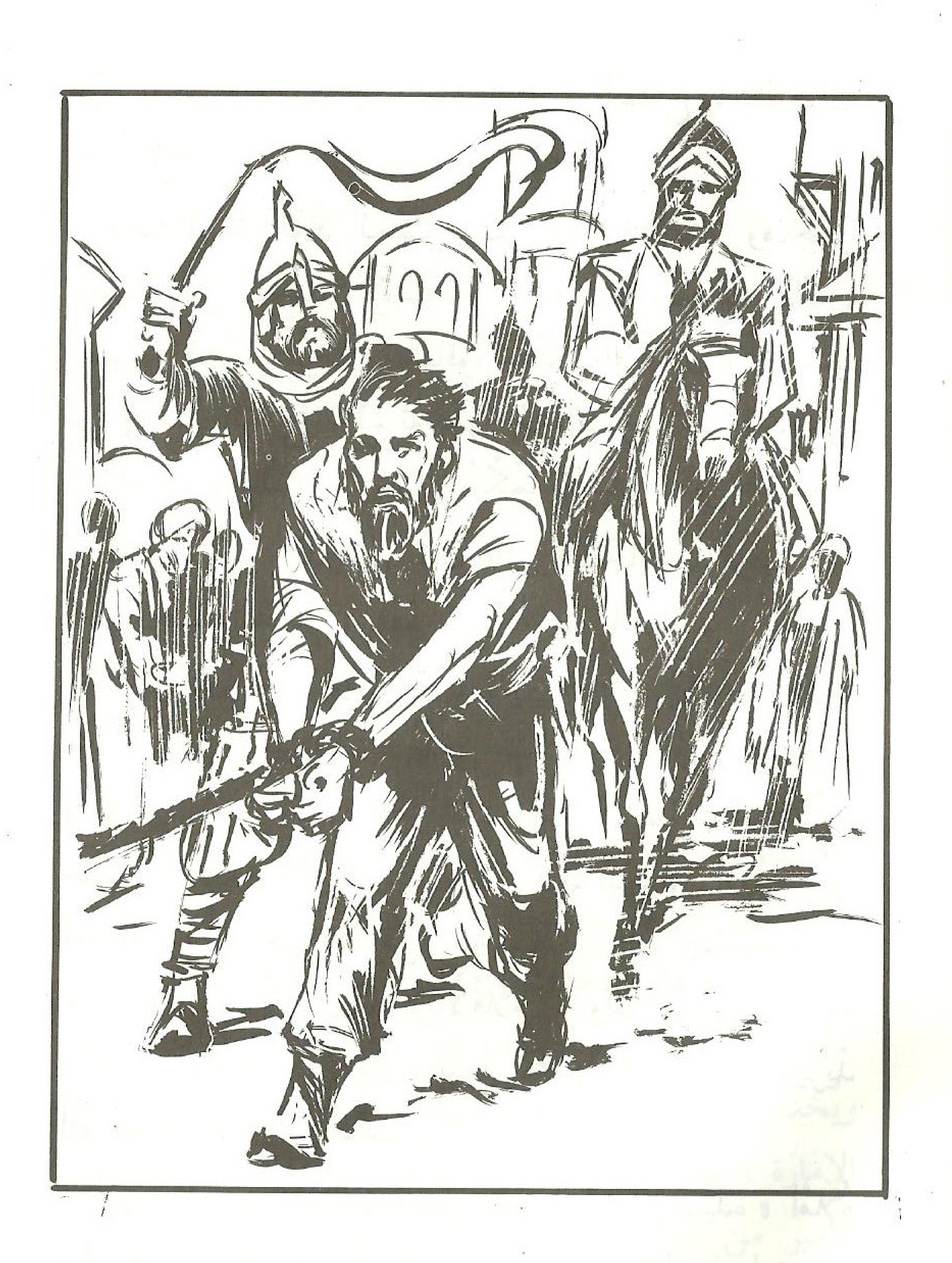
ـ يا أَبَا عُبيْدة . حَيَاةٌ قصيرةٌ غنيّةٌ بالعِلْم ، والمسَرَّةِ ، والعَمَلِ ، خَيْرٌ عِندِى من حَياةٍ طَوِيلَةٍ خاوِيةٍ من هذِه المُتعِ الثّلاَث ، يَنْحَنِى فى خاتِمَتِها الظّهْر ، ويسيرُ صاحِبُها على ثلاث : قدَمَيْه ، والعَصَا .

وذاتَ ليْلةٍ ، فَاجأ « أبُو علِى » ، صحبَه من العُلماءِ . قدّم لهُمْ عُوداً ، لم يرَوْا مِثلَهُ منْ قَبْل ، بِهِ مفاتيح عِنْدَ العُنُق ، ترفَعُ الأَوْتَارَ قَلِيلاً عنْه ، وقالَ أبُوعلِىّ :

ـ هذِه مفاتيح تُتِيحُ للعَازِفِينَ التحكُّم فى دَرَجةِ شَدِّ الأَوْتار ، فالوَتَرُ الرّخو أضعَفُ نَغماً ، والوَتَر المشدُود أَحْلَى فى الأَنْغَامِ ، وتَرْدِيدِ الأَصْداء .

عـالم فى السِّجن

وأصـدَرَ « أَبُـوعلى » قَـرَاراً ، وقّعـه الأمِيـرُ « شَمْس الدولة » في تَرَدُّدٍ وَإِشْفَاقٍ . وأَوْقَفَ هذا القرار قُوّادَ الجَيْش عَنْ توَلّى أُمورِ الخَرَاج ، وَجِبَايَةِ أَمْوال الفُقَرَاء ، بأكثَر مما يَطِيقُون . فلا يَنْبَغِى لقَائِدٍ فى الجَيْش أنْ يكُونَ وَالِياً ، ولا جَابِىَ خَرَاج ، حتّى لا يَغْتَنِىَ بالمَالِ ، ولا يفْقِدَ رُوحَ القِتَال ، ولا يتمَرّدَ يَوْمًا على الأُمَرَاء ، وتَفْقُدَ الدّوَلُ



حَياةَ الأمْنِ والاستِقْرار ، بالمَطامِحِ والأطْماعِ ، بالأمْوالِ وبالسِّلاح .

وعندئذٍ ثارَ قُوّادُ الجَيْشِ على هَذا القَرار . وهاجَمُوا بفَصِيلَةٍ من الجُنْدِ ، قَصْرَ « أبى على » وقَبَضُوا علَيْه ، وضَرَبُوه ضَرْبًا مُبَرِّحًا ، وساقُوهُ مُكَبَّلًا بالأغْلال ، وسَجَنُوه فى إحْدَى القِلَاع . ثم تَوَجّهُوا إلى قَصْرِ الأمير « شَمْسِ الدّوْلة » ، وطالَبُوه بأنْ يُصْدِرَ حُكْمًا بإعْدَامِ « أبى علىّ » .

لكن شَمْسَ الدّوْلة ، كانَ فائِقَ الشّجَاعَةِ ، فَرَفَضَ أنْ يُصْدِرَ هَذا الحُكْمَ ، فهُوَ شَرِيكُهُ فى القَرار ، وأبُو علِى عالِمٌ لا نَظِيرَ له ، ولَنْ يقُولَ التّارِيخُ عَنْه إنّهُ قَتَلَ عالِمًا مثْلَه . لَكِنَّ الأمِيرَ قبِلَ أنْ يُلْغِىَ هَذا القَرار ، وقَبِلَ أنْ يعْزِلَ « أبَا علِىّ » من رِئاسَةِ الوُزَراء ، وقَبِلَ أنْ يَظَلَّ « أبا علِىٍّ » حَبِيسَ القَلْعَة ، لا يُغادِرُها . وقَبِلَ قُوّادُ الجَيْشِ أنْ يُحسِنُوا مُعامَلَةَ « أبِى علِى » فى مَحْبَسِه ، وأنْ يسمَحُوا لهُ بالكُتُب ، وبالأوْراق ، وبالأقْلام ، وأنْ يزُورَه صَدِيقَه « أبُو عبيدة » فى كُلِّ نَهار ، ليُملِىَ علَيْه « أبُو علِى » ما يُرِيدُ أنْ يُملِيَه من المُؤَلّفات .

وفى اليَوْمِ الأوّل ، الذى زارَه فيه « أبو عُبَيْدة » أمْلاَهُ « أبو على » قَصِيدَةً طَوِيلَةً من الشّعر ، قالَ فِيها :

عَجَباً لِقَوْمٍ يَحْسُدُونَ فَضَائِلِى
مَا بَيْنَ غُيَّابِى إلَى عُذّالِى
عَتِبُوا عَلَىّ فَضْلِى وَذَمُّوا حِكْمَتِى
واسْتَوْحَشُوا مِنْ نَقْصِهِمْ بِكَمالِى
إنّى وَكَيْدَهُمُ وما عَتِبُوا بِهِ
كالطَّوْدِ يحقِرُ نَطْحَةَ الأوْعالِ
وإذَا الفَتَى عَرَفَ الرَّشَادَ لِنَفْسِه
هَانَتْ عَلَيْهِ مَلامَةُ الجُهّالِ

العودة لرئاسة الوزراء

وَمَرِض « شَمْسُ الدوْلة » بِقُرْحَةِ المعِدَة ، والتِهَابِ القَوْلُنج ، وحَارَ الأطبّاءُ فى عِلاجِه ، وقبِلَ قُوّادُه خُرُوج « أبِى على » مِنْ سِجْنِه ، لِعلاج أَمِيرِهم . ونسِى « أبُو على » كُلّ ما حَدَثَ من القُوّادِ والجُنْد . وأخَذَ يُمَرِّضُ الأميرِ بِنفْسِه فى حُجرته ، ويُداوِيهِ . يُسَكِّنُ لهُ آلامَه ، ويُحدِّدُ لهُ طعامَه وشَرابَه ، ويُبْعِدُه عن التفكيرِ فى مَشَاكِلِ الإمَارَة ، عندما تكُونُ مَعِدَتُهُ مُمْتَلِئَةً بالطّعام ، حتّى شُفِى الأميرُ من مَرَضِه .

واعتذر الأمير « شمسُ الدولة » لأَبِى علىّ عما لِحقه من الأَذَى . ونَجحَ الأَميرُ فى استِرْضاءِ قادَةِ الجيش ، فَوافَقُوا على إعادَةِ « أبِى على » لرِئاسَة الوُزراء فى هَمَذان ، كَىْ يَفْرَغ الأميرُ لغَزوِ إقْليم « كارِمَ » بجيْشه .

وعادَ « أَبُو على » إلى قصْرِه ، وإلى لقاءِ العُلماءِ ، وإلى إملاءِ مُصنّفَاته ، وإلَى سَهرَاتِ اللّيالِى مع الأصْحَاب ، والغِناء ، والمُوسيقى ، بينَما كانَ الأميرُ « شمسُ الدّولَةِ » يُقاتِلُ فى حُرُوبه ، ويعُودُ للإسْرَافِ فى طَعَامِه وشَرَابِه ، فيُعَاوِدُه المَرض وَيَشْتَدّ عليْه ، ويخْشَى قَادَةُ جَيْشِه على حَيَاتِه ، فَيَعُودُونَ بهِ مُسْرِعين إلى « هَمَذان » آملينَ أَنْ يُسْعِفَه « أَبُو على » بالعِلَاج ، لكنّ الأمِيرَ شمْس الدّولة ، يلفِظُ أنفَاسَه فى الطريق ، عِنْدَ الجبلِ الذى تَقعُ « هَمَذانُ » على سَفْحِه ، قبْلَ أنْ يدخُلُوا بِهِ إلَى المدينة .

رسالة سرّية

ويتَولّى العَرْشَ الأمِيرُ « تاجُ الدولة » بعْدَ أبيه . ولم يَكُنْ هَذا الأميرُ قَوِىّ العَزْم ، ففتحَ أُذُنَيْه وعَقْلَهُ لحسادِ « أبِى علِىّ » وخصُومِه ، فيعْزِلَه من رِئَاسَة الوُزراء ويقْطَعَ عنْه كُلَّ رَوَاتِبه من الإمَارَة .

ويزعُمُ قادَة الجَيْشِ للأمِيرِ الجَدِيد ، أنَّ « أَبَا علِىّ » ينتقدُه فى مَجَالِسِه بقَصْرِه ، ويخْشَى « أَبُو علِىّ » مِنْ سَجْنِه مرَّةَ أخرى ، وقَتْلِه ، فيُغادِرُ قَصْرَه لَيْلاً ، ويختَفِى عَنْدَ صدِيقِه « أَبِى غالِبِ العَطّار » . ويُخْفِى « أَبُو غالِبٍ » أَمْرَهُ عَنِ النّاسِ ، حتّى ظَنُّوا أَنَّ « أَبَا عَلِىّ » قد تمكَّنَ من الفِرَارِ من هَمَذان . ولم يكُنْ أَحَدٌ يعلَمُ بمكانِهِ سِوَى قِلّةٍ من الأَصْدِقَاءِ ، كانُوا يتَرَدَّدُونَ علَيْهِ فى ظَلَام اللّيْل ، وبيْنَهم كانَ « أَبُو عُبَيْدَةَ » الصديق . وكانَ « أبُو على » يُملِى عَلَى صاحِبه بَقِيّةَ فُصُولِ كِتابَيْه الموسُوعِيّيْن : « القانُون » و « الشّفَاء » .

وكانَ « أبُو علِى » يخشَى أنْ يكتشِفَ أحدٌ مَخْبَأَه ، ويُوقِنُ أَنَّ عَلَيْه أن يرْحَلِ عنْ « هَمَذان » ، وأَنْ يكُونَ فى حِمَايَةِ أَمِيرٍ آخَرَ ، من أُمراءِ الدَّوْلَةِ البُوَيْهِيَّة ، فبعَثَ سِرًّا برِسَالة إلى الأمِيرِ « عَلاءِ الدّوْلةِ كاكُويْه » ، أميرِ « أَصْفَهان » يطلبُ فِيهِ القُدُومَ إلَيْه ، وتوفِيرَ الحِمَايةِ له .

وعلِمَ الأميرُ « تاجُ الدَّوْلَةَ » بأمرِ الرّسَالة ، من عيونِه فى « أصْفَهان » ، فأَدْرَكَ أن « أَبا على » ما يزال فى « هَمَذان » ، وأفلَحتْ عُيُونُه فى اكْتِشَاف مَخْبَئِه ، فداهَم الجُنْدُ قصْرَ « أبِى غالِب » وقَبَضُوا عَلَى « أبى عَلِىّ » ، وأَمَرَ « تاجُ الدَّوْلَةِ » فألْقَى بِهِ سَجِيناً فى قَلْعَةِ « مَزْدَجان » .

حــرب بيـن أمـيرين

فى السِّجْن ، فى القَلْعَةِ ، وطَوَالَ أَرْبَعَةِ أَشْهرُ ، شَغَل « أَبُو علِىّ » نفْسَه بتأليف كتابِ « الهدايات » ، وتدْوِين رِسَالةٍ عن مَرضِ القَوْلنج ، ذكرَ فِيها أَسْبابَ هذا المَرض وأعراضَه ، وطُرقَ الوِقَايَةِ والعِلاَجِ منه . وكانَ « أبو علِى » يائسًا من نجاتِه فى هذِه المرة ، ولم يكتُمْ مَشاعِره اليائسَة ، فراحَ يصبُّها فى شِعْرٍ حَزين ، منْه قوْلُه :

دُخُـولِى بـالْيَقِينِ كَـمَا تَـرَاهُ
وكُلُّ الشَّكِّ فِى أَمْرِ الخُرُوجِ

ونَقَـلَ « أبو عُبَيْـدَةَ » شِعْـرَ « أَبِى عَلِىّ » لـلأميـرِ « عَلاءِ الدِّين » ، فثَارَ أمِيرُ « أَصْفَهان » وقادَ جَيْشًا هَزم بِهِ جَيْشَ « تَاجِ الدَّوْلَةِ » ، خارِجَ « همذان » ، لكنّه لم يتمكّنْ مِنْ دُخُولِها ، فعادَ إلى « أَصْفهان » .

واضْطرَّ « تاجُ الدوْلة » إلى إخْرَاجِ « أبى علِىّ » من سِجْنِه ، فعَادَ للإقَامَةِ فى دَارِ صَدِيقِه « أَبِى غَالِب » ، وراح يتحيَّن الفُرَصَ للهَربِ من « هَمَذان » . ودبّر له أصحابه أمْرَ الفِرَار ، فتَنَكَّرَ فى زِىِّ الصُّوفية ، وانسَلّ من « هَمَذان » مع أخِيه ، فى ظَلامِ اللّيل . وكان قد بلَغَ من العُمرِ خمسًا وأرْبعِين سَنة .

عــالم الفــلك

قبل أن يصِلَ « أبُو على » إلى « أَصْفَهان » ، استَقْبَلَه فى الطّريق خَوَاصُّ الأَمِير « عَلاءِ الدولة » ، ورحّبَ به الأمِيرُ بنفْسِه عنْدَ أَبْوابِ « أصْفَهان » . ونَزَل « أبو على » ضيْفًا فى دَارِ « عبدِ الله بنِ بَابِى » ، بحىِّ « كُونْكيد » .

كانتْ « أصْفَهان » مدينةً عامِرَةً ، تقعُ بيْنَ « طهْرَان » ، و « شِيرَاز » . واشْترَى « أبو على » لِنفْسِه قصرًا يُقِيمُ به ، ويتفرّغُ فِيهِ للتّأْلِيف ، آملاً أَنْ يظَلّ بعِيدًا عن السِّياسَة ومكـائِدِ السّاسَة والعَسكرِيّين . وحقّقَ لهُ الأمِيـرُ « عَلاءُ الدَّوْلة » ما يُرِيدُه ، علَى أنْ يجالِسَهُ مِساءَ كلّ يوْمِ خَمِيس ، وأنْ يقُومَ برصْدٍ عَمَلِىٍّ للكَوَاكِب ، يُصْلِحُ بهِ فَوْضَى التّقَاوِيم .

وانشَغَلَ « أَبُو على » ، بالرّصْدِ الفَلكَىّ للكَواكب والنّجومِ مع صَدِيقه الفقيه « أبى عبيدة » ، وابتَكرَ للرّصْدِ آلاتٍ جديدَةٍ ، وَوَضَعَ ثِمارَ جَهْدِه الفَلكَىّ فى كتابِه « الإنصافُ فى الأَرْصَاد » ، بعْدَ عَملٍ شاقٍّ استغرَقَ منه ثمانِى سَنوات ، أضافَ خِلالَها جُزءًا فى المنطِقِ لكتابِه « النجاة » وهو الكتابُ الذى جَعَله مُلَخّصًا لكتابِه « الشفاء » .

اذبحـــونى

وعَادَ الأميرُ « علاءُ الدولة » يُلِحُّ عَلَى « أبى عَلِى » ليكُونَ رئيسًا لوُزَرَائِه ، قائِلًا له :

ـ اقبلْ يا أَبَا علِىّ ، فأَنَا بحاجَةٍ إلى عقلِك ، وعَوْنك . ولنْ تَنْدَم على قَبُولِك يَوْماً ، فَأَنَا أميرٌ ، لا يَسْمَحُ لنفسِهِ بالوُقُوعِ فى أَخْطاءِ الأُمَرَاءِ الآخرين ، ولا أُوَلِّى أُمُور النّاسِ لقادَةِ الجيْشِ .

وقَبِلَ « أبوعلى » ، وأَفْرَغَ نَهارَاتِه لِمهامّ الإِمَارَة ، ولَيَالِيَه لِلِقاءِ العُلَماء ، والتَّمتُّع بالسَّماع .

وشَكَا لهُ الأميرُ « علاءُ الدولة » يوْمًا ، قالَ :

ـ لِى قريبٌ يا أَبَا على ، أصَابَهُ الجُنُون ، فهُوَ يَظُنّ أنّهُ بَقَرَة ، ويخُورُ مثْلَ البَقَرَة ، ويُطَالِبُ بذَبْحِه ، وحينَ لم يجِدْ أَحَداً يذبَحُه ، امتنَعَ عن الأَكْل ، وبتُّ أنتظِرُ موْتَه ، لِيُريح نَفْسَه من الخُوار ، ويستَرِيحَ بِراحتِه مَنْ حَوْلَه .

واستَنْبَطَ « أبوعلِىّ » حِيلَةً لعِلَاجِ هَذَا المريض ، لا عَهْدَ لأَحدٍ بِهَا ، فكتَبَ لهُ رِسَالَةً قالَ لهُ فِيها : « افرَحْ الآن ، فالجزّارُ سَوْفَ يأتِى قَرِيبًا لِذَبْحِك ، لكنّه إنْ وَجَدَك هَزيلاً ، لا يُطْعِمُ لَحمُكَ أَحَداً ، فلَنْ يَرْضَى بذَبْحِك .



فكُلْ كَثِيراً ، واشرَبْ كِثيراً ، حَتى تَسْمُن ، وتمتَلِىءَ باللَّحْمِ ، كىْ يَرْضَى الجَزَّارُ بذَبْحك » .

وفرِحَ الشّابُّ بما قَرَأه ، وصاحَ فِيمنْ حَوْله :

ـ اطعِمُونى . اسْقُونِى . افرَحُوا مَعِى . الجزّارُ سَيذْبَحُنِى . سَتأْكُلُون جَمِيعًا من لحمِى ، أطباقًا شهِيّةً من اليَخْنِى .

ومرَّ شهْرٌ بكَامِلهِ ، ودخل « أَبُو عَلِىٍّ » عَلَى الشّابّ ، شَاهِراً فى يَدِه سِكِّينًا وحينَ رَآه الشّابُّ خارَ خُوارَ البَقَرَة ، ورَدّدَ خُوارَه عَالِياً ، وألْقَى الخَدَمُ بالشّابّ عَلَى الأَرْض ، وقَيّدُوا يَدَيْه ورِجْلَيْه . وأَخَذَ « أَبُو عَلِىّ » يَجُسّ لَحْمَ جِسْمِه كله ، ثمّ وَقَف غَاضِباً ، وقَالَ :

ـ إنّه ما يَزال هَزِيلاً ، ولا يَصْلُحُ للذَّبْحِ الآن . سَمِّنُوه قَبْلِ ذَبْحِه .

وَوَجِمَ الشّابّ المرِيضُ بنفْسِه ، وصاح بمَنْ حَوْله :

ـ أَطْعِمُونِى . اسْقُونى .

ومضَى شَهْر ، وكانَ الشابُّ المرِيضُ قد سَمِن ، وازْدَادَ صِحّةً وعَافِيَةً ، وزَال عن نفسِه وَهْمُ أنَّهُ بَقَرَة . وصارَ

يخْجَل حينَ يقولُ لهُ الأَمِير « علاءُ الدولة » ضَاحِكاً أمامَ « أَبِى عَلِىّ » :

ـ أَلَا تزَالُ تُرِيدُ الذَّبْحَ يا بُنَىّ ؟!

الخـــروج الأخـــير

أقامَ « أبُو على » فى « أصْفَهان » ، حتّى بَلَغ منَ العُمْرِ خَمسًا وخَمْسِين سنَة . وأُصِيبَ « أَبُو على » بما كانَ يُعالِجُ مِنه مَرْضَاه مِنَ الأُمرَاء ، بدأَ يُعانِى من آلامِ قَرْحَةِ المعِدَة ، وآلامَ القَوْلُنج ، بسبَبِ إفراطِه فى الطّعام ، والشَراب والسَّهَر ، والجهْدِ الفِكرِىّ ، والعَمَلِ المتَواصِل ، وقِلّةِ النّوْم .

وأخَذَ « أبُو على » يُعالِج نفسَه ، بحُقَن استخلصَها من النباتَاتِ ، وكُلّما شُفِى ، عادَ إلى عَادَاتِه المفرِطَة نفسِها ، ويعُود من جدِيدٍ لعلاجِه لِنَفسِه . وبدأَ فى جَهْدٍ آخر مُرْهِق ، راحَ يَرْكَبُ فيهِ فرَسًا ، ويصَحَبُ الأمِيرَ « علاءَ الدوْلَةِ » فى خُرُوجِه لرِحْلَاتِ الصّيْد ، أو لِلحَرْب ، فَيزِيدُ عليهِ المرَض ويشْتَدّ ، حتّى يقذِفَ الدَّمَ من فَمِه ، ويعْجزَ عن السّيْر ، عندَئِذٍ أهْمَل « أَبُو علىّ » عِلَاج نَفْسِه ، وقالَ لأخِيه « الحارث » ولصاحِبِه « أبى عُبَيْدة » :

ـ إنّ المدبِّرَ الذى فى بدَنِى ، عجَزَ عن تدْبيرِ بدَنِى ، فلا تَنْفعُنِى المعالَجَة .

وتحامَل علَى نفسِه ، وخَرَج مع الأميرِ « علاءِ الدولة » الذى أحبّه ، ليكُونَ بالقُربِ منه ، أثْناءَ حَرْبه لأميرِ « هَمَذان » ، يحملُه فى مَحْمِلٍ أربعَةُ أعْوان ، بأيْدِيهِم الثّمانِيَة .

فى « هَمَذَان » ، اشتدّ المرَضُ عَلَى « أبِى على » ، وأدْرَكَ أنّها النّهاية ، فاستعدّ لِلقَاءِ ربّه . اغتَسَل ، وتَفَرّغَ للصّلاةِ والتّوْبَةِ والاستغفارِ ، وقِراءَةِ القُرآن ، وتصدّق بكلّ مالِه على الفُقَرَاء . ولبِثَ ينتظِرُ النّهَايَةَ ، تَتوالَى على ذَاكِرتِه أوَائِله فى العُلُوم ، فى كُتُبِه : القَانُون ، والشّفاء ، والنّجاة ، عَبْرَ خمسِينَ مُجَلّدًا .

أوائل ابن سينا

كانَ « أبُو علِىّ الحُسَينُ بنُ عبدِ الله بنِ علىّ بنِ سينا » ، أوّلَ من حقَنَ الإبرَ تحْتَ الجِلد ، وأوّلَ من استَخْدَم التخديرَ لإجْراءِ الجرَاحات ، وأوّلَ من دَرَس أمْراضَ المعِدَةَ والأمْعَاء دِراسَةً متعمِّقَة ، وأوّلَ من فطِنَ إلى تأثِير أحْوالِ النّفسِ فى الجِهازِ الهَضْمِىّ ، وأوّل من فرّق بيْنَ

أسْبابِ شَلَل الوجْه ، وأوّلَ منْ وَصَفَ الدِّيدَانِ المعويّة ، وأوّلَ من وَصَفَ الجهازَ التنَفُّسِىّ ، والأمْرَاضِ العَصَبيّةِ ، وأوّلَ من وَضَعَ الثّلْجَ عَلَى الرّأْس . وكانَ الناسُ يقُولُون : كانَ الطبُّ معْدُوماً فأوْجدَه « أبُقْراط » ، ومَيّتًا فأحْيَاهُ « جَالِينُوس » ، ومُشَتّتًا فجمَعُه « الرّازِى » ، ونَاقِصًا فأكْمَلَه « ابْنُ سِينا » .

وكانَ « أبُو على » أوّلَ من اكتشَف فى قِسْمِ الطبيعيات ، من كتابِه « الشِّفَاء » ، القَانُون الأوّل للحركَة (فى علم الديناميكا) قبلَ أن يتحدّث « إسحق نيوتَن » عَنْ قَوانِين الحركةِ بخمسمائة عام . فالجِسْم ، عنْدَ ابنَ سينا ، يبْقَى فى حَالَةِ سُكون ، أو فِى حَالَةِ حَرَكَةٍ مُنتظِمةٍ ، فى خطٍّ مُستقيم ، مَا لَمْ تُجْبرْه قُوَى خارِجيّةٍ عَلَى تغييرِ حالَتِه .

وفِى المُوسِيقى ، كانَ « أبُو على » أوّلَ من تَحدّثَ فى كتابَيْه : « الشّفاء » ، و « النّجاة » عَنْ تَأْلِيفِ الأنْغَام ، وعَنْ أزْمِنَة الإيقَاع ، وعن تَعْلِيلِ حُدُوثِ الأنْغَامِ الغَلِيظَة المنْخَفِضَة والأنْغَامِ الرفِيعَةِ العَالية . وكان أوّلَ من تَحدّث عنِ السُّلمِ الملوّن ، المُكوّنِ من أنْصاف نَغْمات مُتَتالِيَة ، وأوّلَ مَنْ تَحدّثَ عَنِ الفَوَاصِلِ المُوسِيقِيّة المُتّحِدَة .

اليوم الأخير

كانَ اليومُ يوْمَ جُمعة ، الجمعةُ الأُوّل من شَهْر رَمَضان سَنَة أربعمائةٍ وثمانٍ هجرية ، أَلْفٍ وسبْع وثلاثين مِيلادية ، وكانَ « أبوعلى » ينتظِرُ لِقاءَ ربّه ، وصُوَرُ الطبيعة التى تَحدَّثَ عَنْها فى كتُبه تَتَوالَى أَمامَ عَيْنَيْه .

كانت الشمسُ تغربُ فى الأفق ، والناسُ قد ذهبُوا إلى صلاةِ المغرب حين لَفظَ « أبوعلى » أنفاسَه ، وفارَق الدنيَا .

ونُعِىَ « أبو عَلِيٍّ » إلَى الأمِيرِ « عَلاءِ الدوْلة » ، وحَمَل جَسَدَه الجُنْدُ ، وَوَارَوْهُ الثَّرَى ، فى سَفْحِ جَبَلِ « هَمَذَان » ، المدينةِ التى عَرَف فيهَا مجْدَ السِّياسَة ، ومَهانَة السِّجْن ، وقَالَ فى أهلِها الشّعْر ، وصَعَّد برُوحِه ، إلى ذُرَى العَقْل والمعْرِفَة .

●

وفِى أَرْجاءِ الأَرْض ، وعلَى مَدَى ثَمانيَةِ قُرُونٍ ، انتشَرَتْ نُصُوصُ كُتُبِ ابنِ سينا بالعَربية ، فى مَكْتَبَاتِ الدنيا ، وانتشَرت معَها تَرْجَماتٌ لها وشُرُوحٌ باللّغات

اللاّتِينيّة ، والعِبْرِيّة ، والأَلْمَانِيّة ، والإنجليزِيّة ، والفِرنسية ، والرّوسِية .

وظَلّ كِتَابُه « القَانُون » ، الذى تقْرَب كِلماتُه من مليُونَ كَلِمة ، هو الكتابُ العُمْدَة فى دِرَاسَةِ الطّبّ بالجامِعَات الأُورِبِّيّة إلى القرنِ الميلادِىّ السّابع عشَر .

وبسبَبِ عبقرِيّة « ابنِ سينا » ، والمجدِ الذِى حظِىَ به فى حَيَاتِه ، وبعْدَ وفَاتِه ، بعلْمِه ، وبحياتِه السياسِيّة العاصِفَة ، تنازَعَ جنْسِيّتَه : العَرَب ، والفُرْس ، والتُّرْك ، والسُّوفِييت ، واحتَفَلوا جميعاً مع بدايةِ العقْدِ الثامِن فى القرْنِ العِشْرين ، بالعيدِ الألفى لمولِده ، تكرِيمًا لعَطائِهِ ، وذِكْرَاه .

●

وفى تُرْكيا ، وإِلَى اليوم ، ما يَزالُ الأَتْرَاكُ ينسِجُون حَوْل ابْنِ سِينا ، وخَوَارِقِه ، الأَسَاطِيرَ الرمْزِيّة .

يحكُون ، فيما يحْكُون ، أنهُ كان يوجَدُ مَلِكٌ فى حَلَب (لم يذهَب ابنُ سينَا إلى حَلَب قطّ) . وكانتْ « حَلَبُ » قد صَارَتْ فَرِيسَةً للفِئْرَان التى راحتْ تُشِيعُ فِيها الخرَابَ ، وطَلَبَ الملِكُ من ابنِ سينا أنْ يجِدَ وسِيلَةً لإبادَةِ الفِئْرَان ، فطَلَبَ ابنُ سِينا من الملِك ، أنْ يقِفَ عندَ بابِ المدِينة ،

ولا يضحكُ مما سوْف يَراه . ورضِىَ الملِكُ ، وركِبَ فَرَسَه ، وذهَبَ إلى بَابِ المدينة ، وانتظرَ عِنْدَه .

وأخَذَ ابنُ سِينا يقْرأُ إحْدَى الرّقى ، فأقْبَلَتْ فَأْرَة ، فقتَلَها ، وَوَضَعَها فى صُنْدُوق . ودَعا أرْبَعَة فِئْرَان ، فأقْبَلَتْ تَحْمِلُ الصُّنْدُوق بالفَأْرَةِ القَتِيلَة . وجاءَتْ بقِيّةُ الفِئْرَان . وانتظَمَتْ فى أرْبَعَةِ صُفُوف ، وتَبِعَتِ الصّنْدُوقَ إلى خارجِ المدِينَة .

وحينَ رأَى الملِكُ هذا المشْهد ، لم يَسْتَطِعْ أنْ يمنَعَ نفْسَه من الضّحِك ، فَضِحَكَ عالِيًا ، وعندئذٍ فرّتِ الفِئْرَانُ التى لم تُجَاوِزِ البَابَ عَائِدَةً إلى المدِينَةِ . أمّا الفِئْرَانُ التى كانتْ قَدْ تجاوَزَت البَابَ فماتَتْ فى الحَال .

وقالَ « ابنُ سينَا » للمَلِك :

ـ أيُّها الملِك ، لوْ لَمْ تَضْحَك ، لم يَبْقَ فى المدِينَة فأْرٌ وَاحد ، ولَذَهَبَ الهَمّ عنْ جمِيعِ النّاس .

●

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٨٧ / ٤٧٢٧

مطابع الأهرام التجارية القاهرة ـ مصر